الأسرة المصرية

وبعصرها القديمة

محمد عبد الكريم صالح
الأسرة المصرية
في عصورها القديمة

د. عبد العزيز صالح

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
وعميد كلية الآثار الأسبق بجامعة القاهرة

الهيئة المصرية للكتاب
1988
الإخراج الفني

الغلاف: سها سليمان
البير جورجي
الفهرس

تقديم : بين الماضي والحاضر .... 5
الفصل الأول.
حكمة مصر القديمة ومقومات سعادة الأسرة .... 11
الفصل الثاني.
الميزادات في الترجم والقصص وواقع الحياة .... 21
الفصل الثالث :
شباب ما قبل الزواج ، وأزياء الأتال والرجال .... 39
الفصل الرابع.
القرآن وعقود الزواج وتبنيات الطلاق .... 55
الفصل الخامس.
الحمل والولادة ، الرضاعة والعلاج .... 69
الفصل السادس.
من النسمات القديمة للمواليد .... 87
الفصل السابع :
الأبوان والأطفال في المناظر ومجموعات التماثيل .... 99
الفصل الثامن :
قيم الأمومة والأبوية وآداب البيئة في الفن والأدب .... 109
الفصل التاسع :
من مثاليات الأسرة : في التدريس - وعدالة النوريث - والرفق بالأيتاء .... 123
الفصل العاشر :
المرأة في المجتمع والحياة العامة .... 141
اللوجبات .... 147
بحث عن ختامة .... 193
بسم الله الرحمن الرحيم

القرينة

بين الماضي والحاضر

من المسلم به أن حضارة مصر القديمة تعد من أولى الحضارات الكبيرة المستقرة ذات القيم الراسخة، والتقاليد التماسكة، والأثر الكثيرة الباقية، إن لم تكن هي بالفعل أقدمها عماراً وتأثراً. وهو تاريخ خلّد مبكراً بفضل السبق إلى ابتداع الكتابة وتصنيع أوراق البردى وكثرة المنشآت واتساب التمثيل على الحجر، وذلك منذ اكتمال الوحدة السياسية والاجتماعية الكبيرة للمجتمع المصري القديم في أواخر الآلاف الرابع قبل الميلاد، بعد دهور ما قبل التاريخ التي سبقتها بآمام أخرى طويلة لم تكن لها مصادر مكتوبة.

ورغم عقب الطابع المحافظ الذي صبغ معظم وجهة الحضارة المصرية القديمة، لم يتجسد نحوها التطور الثقافي والروحي والعقل عصرها المزدهرة بخصوص. ثم تداخلت وتفاعلوا جزئياً بعض مقوماتها الأخلاقية الخاصة فيها بعد ما لم تعرض معه من عقائد المسيحية، ثم من عقائد الإسلام، منذ بدايات ظهورهما المبكرة.
وأخيراً، بلغ الامتداد، وقدمها بعيد في أحوال الزمن، وتتنوع
خبراتها الحياتية ومقاوماتها الثقافية المتجددة من عصر إلى عصر، لازالت بعض
سمات الروح المصرية القديمة بيئة إلى الآن وآله ملحوظ في غير القليل من
مقاومات الشخصية المصرية المعاصرة، بلامها السلالية (أو الجنسية) ؛
وتالبها النضال والوجود الغالب، وخصائص سلوكاتها الاجتماعية
الامة - وذلك من حيث أسسها الرئيسي على أقل تقدير - دون افتراض أو
توقع توازن الزراعة أو الفضائل في هذه السمات بمائة عن النقائص أو العيوب
فيها بحال من الأحوال .

ويتضح هذا أكثر ما يتضح في التكوين الغالب على جهيرة المواطنين
المصريين من الأوساط الريفية والشعبي على وجه الخصوص، مع شيء من
التجاوز عنها تلونت به حياتهم العامة مؤخرًا من متغيرات العصر الحديث
وتطوراته السريعة ، فضلاً على تنويع المستويات الاجتماعية والاقتصادية
والثقافية في المجتمع المصري الكبير خلال مختلف عصوره المتلاحقة .

واكتسبت البقية المتوازئة من قيم السلوك والعادات في حياة المجتمع
المصري على امتداد تاريخه الطويل، استمرارية التسميات المصرية القديمة
لعدد لا ينقطع به من القرى والهпоз حتى الآن، وذلك فضلاً على بقاء عدد من
مصطلحات الحرف اليدوية الشائعة ومنها حركة الزراعة بشعورها التقليدية .
ثم تداخل بعض ألفاظ وتراكيب اللغة المصرية القديمة في لغة مصر العربية أو
الدارجة التي احتفظت باللهجة وجرس ونكهة مستحبة لا تزال تختص بها بين
سائر هجرات الوطن العربي على اتساعه .

ولحياة الأسرة المصرية، الموضوع الرئيسي لهذا البحث، نصيب وافر من
الصلة بقضيائها البعيد، فيها تواضع علاه من عادات اجتماعية وممارسات
شعبية، في الريف والأحياء البلدية بعضاً. وذلك من حيث: إثر الترابط
العائلي، وتكافل الجيرة، وحب الاستقرار في المعيشة والسكن، وتركيبة
الزواج المبكر وتأثير الإنجاب، ومسرية بعض عادات الوضع والتطور
والخاتم، وبعض مدلولات تسميات المواليدي، والوسائل الشعبية في علاجهم. ومن حيث التسليم بقوات الرجل على زوجته ونينه ويثانه وامتقاد مستوثبه عنهم حتى ولبنغوا سن العمل والزواج. مع اعتماد الأبناء أنفسهم على عون أسرهم حتى مرحلة الشباب أحيانا. ومن حيث الوسطية في السلوكيات وفي روح التدين وأداء العبادات، والملل إلى النماذج كرامات الأولياء. ومن حيث وطيد صلة المرأة بعمل البيت وجهودها المتواصلة فيه. واستعداد نساء الطوائف الفقيرة لمعاونة الزوج في بعض عمله حين الضرورة. وإيثار الحيا الخشعة للنساء دون التنام مفروض بالحجاب أو النقاب الكامل. والخضع على وجب تأدب الصغار إزاء كبار السن وكبار المقام، والتعبد على مناداتهم في الريف بخاصة بالفاظ الأب والعم والخال ولوم لقيم أساسا على رابطة الدم الفعلية، أو لف تأثير بهدف فعل دائما. وما ينحو عالمي هذا المناخي من قيم وعادات وتقاليد ظهر لها بطبيعة الحال ما يوازيها بصورة في بقية الأسر والمجتمعات القديمة والحديثة، لولا أنها تبدو في مصر أكثر تلقائية واستمرا ووضوحانيا، عنها في كثير مما عداها، وهو ما سوف تكشف عنه تباعاً الدراسة التالية.
الفصل الأول
حكمة مصر القديمة ومقومات سعادة الأسرة

فترض الحكاء المصريون القدماء من مقومات فلاح الأسرة: أهليّة الزوج، والزواج المبكر، وحسن القدوة من رب الأسرة، ورشاد الزوجة، والتعاطف والألفة والأخوة الروحية بينها، ووفرة النسل، وأداء الالتزامات.
ولا تزال أغلب هذه المقومات التي وردت في تعليم ونصائح من عهود مصرية قديمة متفرقة، هي المثل عادة ليكون الزوج سكرنا وعصمة، ومودة وتقاربا روحيا، وعلاقة مشروعة للتكاثر واستمرار العمران.
وهكذا أوصى الوزير الحكيم بناح حوب نجله الأكبر الذي تسمى مثل اسمه، وهو يهؤه لسسؤليات الرجولة والحياة العامة، في فترة ما من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، قائلًا له فيها قال:
(إذا أصبحت كفتاً (أو رشيداً) أنس بيتك (أي كون أسرتك). وأحب زوجتك في حدود العرف، أو عاملها بما تستحق)
وعظ الأديب آن ولده خنسو حوب على فترة من القرن السادس عشر ق. م. بقوله: (تخير لك زوجة وأنت شاب، وأرشدتها كيف تكون
إنسانية» . وهو يعني بذلك تنويعها وتشريد قدراتها الفطرية لما فيه صالح أسرتها
ونفع أطفالها .
ثم قال : «وعساها تلد لك إبناً ، فإنها إذا أنجبته لك وانت في طور الشباب استمعت أن تذهب وتتجه إنساناً . وطوي للمرء كشير الأهل حين يزوج من أجل أبنائه » .
وزاد الأديب عن الخشاشقي من القرن الخامس ق م . حوله للدوه في شع Państ زواج : «اتخذ لك زوجة حين تبلغ العشرين ، حتى يأتي لك الخلفبونك في ميحة الشباب » . وقال له : «قد تقترض مالاً بفائدة لتنزوج ... ، ولكن لا تقترض ما لا بفائدة لتعاظم به » . ووعده حين اختيار قريته بمثل قوله : «أحذر أن تتخذ فتاة بسيئة الطباع زوجة ، حتى لا تزور ثابتة كربة فاسدة » . وما إلى ذلك من نصائح أخرى سوف نستشهد بها في مناسبات تالية .
وشأنتها شأن غيرها من الأسر ، كان من البدهي أن تتفاوت ألوان الأسر المصرية القديمة وتتنوع مقدراتها من أركان تعادتها أو من أسباب شقائها ، بمدى التباين الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في حياتها الخاصة أو العامة ، ومدى كفاح أزواجها وزوجاتها ، ومدى كثرة نسلها وفلاح أسره أو فشل مسعاها .
بيد أنه مع أمثال هذا التفاوت الثقافي الذي عابسه معظم الأسر في كل مجتمع وككل زمان ، ومع احتمال إثارة قلة من المصريين تصدراً العزوبة دون زواج ، نتيجة للفقر أو ما عادها ، إلا أنه يبدو أن الحياة الأسرية في مصر القديمة قد نعمت في أغلب حالاتها بنصيب من الاستقرار النفسي والحيائي والوداني قلها نعمت ممثله الأسر الأخرى في غالبية المجتمعات القديمة المعاصرة لها أو قريبة العهد منها .
وتتنوع أوامل هذا الاستقرار الأسري من فئة إلى أخرى بتنوع الظروف الثقافية والاجتماعية التي كانت تعايشها . وكان من أكثرها فعالية في نطاق
الأوسمة العليا والوسطى من المجتمع – نوع من التوازن السوي عدلته به
الفقه المتوازن بين أوضاع الزوجين في الأسرة. وهو توازن عبر عن بعضه
جزئياً مسميات الزوج والزوجة والزواج، وهي مسميات اصطلاحية يمكن أن
تفسر الآن بعينها أكثر ما يمكن أن يترجم عنها بحرفية ألفاظها.
ففي كان الزوج بالنسبة لفلسفته: «هي» أي بعل، و «نب» أي سيد أو
وأي الأمر ثم هو في الوقت ذاته «سن» أي أخ، وذلك ما قد يعني أن بعلته
وسبادته أو ولايته كانت من قبل حقوق الأخ الأرشد أساساً.
وكان الزوجة بالنسبة لبيته وزوجها: «سنت» أي سيدة، و «حما» أي
حرمة لا تخال لغير قريبتها، وهي بالتالي «سنت حمة». ثم هي «مرة» أي حبيبة.
وقد تسمى «حبسة» أو «حبسة» أي مستورة، و «حما» أي جليسة أو قبودة
كتابة عن رفقته لزوجها وقومها مزعزة فيها. ثم هي «نبت» أي ربة
بيت أو سنت الدار كما يقال حتى الآن. كما أنها في الوقت ذاته «سنت» أي أخت
أو في منزلة الأخت بالنسبة لزوجها.

وشاع من التعبرات الإصطلاحية للزواج في مصر القديمة تعبرات:
جرباً أي تأسيس البيت (بمظلباته) أو تكوين الأسرة. وإرجاً أي
عمل حرمة أو اتخاذ زوجة. ومنى» يعني الرسوم أو الاقتران. و «خا» يعني
القلق (أو عقدة النكاح) أو المتعا (المشروع بين الأثنين). و «حس إرم»
معنى المعاشرة والسكن والخلوة، و «عمرى» أي دخول البيت، وحمل جرا.

وينطاب تعريز الزوج بالأخ، وتعريف الزوجة بالاخت، في التعبرات
المصرية القديمة، تعقيباً موجزاً لتصور فكرة مغلوطة أشاعت الظن لدى
بعض الكتاب القدامى والمحدثين بشيوع زواج الأخ بأخته في المجتمع المصري
القديم. وذاك أمر مشكوك في صحته إلى حد بعيد، على الرغم من أنه لم
ينسب إلى قدامى المصريين وحدهم وإنما نسب بعض المؤرخين مثله كذلك إلى
عدد من الشعوب الشرقية والغربية القديمة الأخرى، كأسلاف العبرانيين
وأهل نباتا السودانيين، وبعض الإغريق والمقدونيين، والروم، والأنباط.
وعرب الجاهلية، إلى، أو على حد تعبير الباحث فلندرز بترى فيها يمتد من بلاد فارس شرقاً حتى الجزير البريطانية في الشمال الغربي. وروى هيرودوت أن الملك قومي تسقي مستشاريه ذات مرة عن قانون الزواج بالاخت وأبلغوه أنه ما من قانون ينص على ذلك ولكن الملك يستطيع أن يبحر لنفسه وأن يفعل ما يشاء. وتكرر نفس السؤال في قصة مصرية دينية متاخرة قد ترجع أصولها إلى عصر الأسرة العشرين، فاستفسر أب أمير عفا إذا كان القانون أو العرف يبيع زواج الأخ بأخته. ولو كان هذا الأمر شائعًا ما تساءل عنه.

ويبدو أن تقاليد الزواج المصرية القديمة قد تجنبت من جانبها زواج المحارم بفطرتها أو بتشريعاتها منذ فترة مبكرة من تاريخها البعيد. وكثيرًا ما دل ما بقي من أساب الأزواج والزوجات في النصوص المصرية القديمة على انتهاءهم إلى أسر متنوعة أو فروع مختلفة، على الرغم من الاستمرار على تلقيب الزوج فيها بالأخ، وتلقيب الزوجة فيها بالأخت.

وفي بحث تقليص نحو 350 زوجة مصرية تبين أنه لا يكاد يوجد فيها غير مثل واحد مؤكد لزواج شقيقين من بعضاها، وكان من أصل ليبي مهجن في عصر الأسرة الثانية والعشرين، وأن ما يعتبره الشك من حالات أخرى معدودة يحتل أن يكون قد تم في أسوا حالاته بين غير الأشقاء. ولو أن هذا كله لا ينفي بالضرورة احتمال وجود حالات أخرى فردية شاذة أبلغ أصحابها لأنفسهم زواج المحارم، وهو شذوذ لم تنج من مثله كبرى الحضارات حتى العصر الحاضر، وإن لم يكن لمجتمعاتها شأنه بباقته.

ومع ذلك فقد أجريت الأسر الملكية المصرية القديمة نفسها حواراً اقتران الأنسان من أفرادها العظام بأخته غير الشقيقة فعلًا على سبيل الاستثناء ومن أجل تحقيق بعض أهدافها العليا للحفاظ على استقرار الملكية ووحدتها. وفي مقدمة هذه الأهداف رغبة التقرب بين أبناء الضرائب الكبار من ورثة العرش إذا كان أكبرهم من غير الملكة الرئيسية ذات الدم الملكي الخارجي. وتتجنب انفراط الأبناء الكبرى من هذه الزوجة الرئيسية بالحكم إذا انحصرت وراثة الشرعية فيها (وذلك فيما خلا حالات نادرة) وتفادي خصومتها لأكبر إخواتها الذكور.
من أمهات أخريات. وفي أمثال هذه الظروف كان لها أو لأبيها، السماح بأن تتزوج بهذا الأخ غير الشقيق ليعتني الاختي العرش معاً بعد أبيها، فسأت biomax أن تعظي بقدر مناسب من السلطة العليا إلى جانب دون أن تفترده بها تماماً أو تخرج منها تماما.

وذكر سفر التكوين من التوراة (في الإصحاحين 13 ، 20) أن إبراهيم عليه السلام وفد هو وزوجته سارة على مصر ليتمار بها بعد أن نزل القحط بأرضه، وأنه تعهد أن يقول بأنها أخته، وقالت هي الأخرى إنه أخوها، أمام ملك مصر ورجاله. وذكر الأمر نفسه منها أمام ملك جرارة في فلسطين. ولما عرفت حقيقة زواجه بها فسر هذا بأنها أخته من أبيه وليس من مه. وربما وافق في الأولى عادة المصريين في نعت الزوجة بالأخت ، كما وافق في الثانية رخصة الملك في تزويج الإخوة غير الأخقاء، إلى جانب ما قد يكون له من غرض خاص مختلف المفسرون في كنه.

ولعل الأمر الملكي المصري القديمة قد بررت لنفسها هذه الرخصة عملاً بما توازن في الأساطير المصرية القديمة عن سابق اقتران العبودين الأخوين أوغير ولاية (أو أوزيرس وإريس في النطق الإغريقي) ببعضها باعتبارهما أقدم جيل جميع بين صفات الربوية والصفات البشرية على وجه الأرض. وربما تكرر الأمر ذاته بالنسبة لأخيها (سوينت ونت حت) (أوست ونتنست). وكان هذا القرآن أشبه بزواج الضرورة، وتمثل إلى حد ما مع ما رواه مفسرو الدينات السماوية عن زواج ولد آدم عليه السلام أختيها الشقيقين حيث لم يكن في الدنيا حينذاك غيرهم مع أبيهم. ومما أتى من أمر فقد أباح قدماء العباقرة (أو بعضهم على سبيل التحري) الزواج بالأخت من الأب ، والجمع بين الأخرين، والتزويج بنت الأخ ونت الأخ ، إلى أن استنكرت الشريعة الموسيوية أغلب هذه التجاوزات.

وليس من المستبعد أن يكون أغلب ما رواه المؤرخون عن إباحة زواج الأخ بأخته في مصر القديمة متاثراً إلى حد كبير بما تربى عليه النسب الحضاري والأخلاقي الذي حقق بأواخر المجتمع الباطل أو الهيلينستي الخليط في
مرحبا، حيث قيل إنه أتي وقت على مدينة أرسنويل كان ثلثا أهلها من أباحوا هذا الزواج، ويحدث قال أحد الرومان في شيء من التحكم إن المرء في أثنا يستطيع أن يتزوج من أخته لأمه أو لأبيه، ولكنه في الاستكرارية يستطيع أن يتزوج من شقيقته (ويقصد بذلك نزالها الأخلاق).

أما في بقية طوائف المجتمع المصري المائلن، وفي عصوره الذهرا بوجه أخص، فقد جرىتبادل لفظ الأخوة بين الزوجين على أساس معنوي من مودة التراحم وروح التعاون. وهي عادة حديثة لأzial لها ما يقللها إلى حد ما بين الفئات الشعبية والوسطى من المجتمع المصري المعاصر، حين يقال، عرضاً أو قدماً، على سبيل المثال، تعاليا يا أختي، وخدية يا خديها، أو أخدا يا أختي، وما أشبه ذلك من تعبيرات المجاملة دون ارتباط لأزم بآخوة دم فعلية.

***

أبنت أقوال حكاية مصر القديمة عن بعض الأوضاع المستحبة للزوجين في الأسرة. فاعترفت بفرماة الرجل على أسرته بناءً على ما التزم به إزاءها وأنفقه عليها، وتم اكتسابه دونها من خيرات الحياة. وأكدت من الزواج بتعاه قريته أن يتكفل بضرورياتها وكمالياتها، وأن يستغني بفضائلها عن نقائصها، وأن يطربا ويلاتها. وإن أباحت له في مقابل ذلك أن يوجهها ويذهبها، أو يؤديها حين الضرورة، ولا يستنكف لها فيما يمس كرامته أو يتناول مع ما يعتقد من رأي سليم.

وصارت بالانتهاء وضع الزوجة الرشيده في أسرتها، سيدة لبيتها، وفية لزوجها، أثيره لديه، فاضلها ما لم يثبت العكس عليها، يغبرهما الثناء، ويرضيها، ويسوءها أن تنافسها إمرأة أخرى مكانها في دارها.

ورأى قدرت لها في الأبلو أنها بحاجة إلى توجيه زوجها، وإلى إدراك حقيقة رسالتها في بيتها وإزاء أبنائها.

وهكذا أورد يبنا عن حوت حكم الدولة القديمة، عن التزامات الزوج تجاهم.
فرينته، في مقابل حقوقها عليها، بعد أن نصحه أن «أحبب زوجتك في حدود العرف، أو عاملها بما تستحق...» قوله:
«أشبع جوفها واستر ظهرها، وعطر بشرته بالدهان، فترياك بدنها هو الدهن (وقام الدهان العطر حينذاك مقام مساحيق التجميل في العصر الحاضر).»

وأُسْعِدَ فَؤَادُهَا طَيْلَةً حَيَايْتُكَ، فَهِيَ (أَيِّ الْمَرَاة) حَقُّ نَافعٍ لَوْلَا أَمْرَهَا.

(وَهُوَ مَا قَدْ يَبْلِغَهُ قُوَّةُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ: (تَسَاءَ كَمْ حُرُثْ لَكُمْ.))

ولا تَنْهِمَا عَنْ سَوَءِ ظَنٍّ، وَامْتَدَحَا تَغْبِثْ شَرْهَا. فإنّ نَفْرَتُ رَايْبَا.

وَاسْتَمْلَقْ نَبَلَاكَ بِعَطَايَكَ تَسْتَقْرُّ فِي دَارِكَ.

وَلَسْفُو يَكِيدُهَا أَنْ تَعاَشِرْها ضَرْةً فِي دَارِهَا . . . . .

وكان أكثر نساعاً حين قال: «إذا رَزِئتِ بِزُوجَةٍ رَعِينَةٍ وَمَسِيَّةٍ لِمَوْاطِنِها . . . . تَرِفُق بِهَا أَمَداً، ولا تَعَجِّل بِتَسْرِيحِها، وَدُعُوَّا تَطَعُّم خُبْزُكَ (رِبَا بِمَعْنَا وَكِلَالَ عَيْشِكَ أو غَدَّهَا بَطْعُكَ).»

وأضاف الأديب آن حكيم الدولة الحديثة عن الموضوع ذاته، قائلاً:

لفتاه.

لا تَعْتَفِقُ زَوْجَتَكَ فِي دَارِهَا إِنْ أُدْرِكْت صَلاَحَهَا.

ولا تَسْلَبَا عَنْ شَيْءٍ قَالَا أَيْنّ مَوْعِهِ هَلْمَ احْضَرْهُ إِلَى إِنَّ إِذَا وَضِعْتُهُ فِي وَضْعَهِ المَلِائِمَ.

افْتَحَ عَيْنِكَ وَأَنتَ صَامَتْ وَتَحْقَقَ مِن مَزَايَاهَا.

وَإِنْ شَتَتْ أَنْ تَسْعَدِ فَاجْعِلْ يَدُكَ مَعَهَا وَعَاوُنَا.

وَإِذَا يَجِلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَيْفَ يَمِيعُ الْإِنْسَانُ اسْبَابَ الشَّفَاقِ فِي دَارِهِ.

وَقَدْ لا يَجِدُ أَحَدُهُمُ مِبْرَاءً لِلنَّصْمَ فِي فَخْلَتِهِ.

وَبَوَسُعُ كَلَّ امْرِئٍ أَنْ يَكَفِّلُ الامْتِسْقَرُ فِي الْمَدَارِ إِذَا تَحَكِّمْ لَنَوُهُ فِي (أَهْوَاء).

نَفْسِهِ.

۱۷ (۲ - الأسرة)
وبمع ذلك فانحذر أن تسير في ركاب أنتى، أو تتركها تسيطر على فكرك.

(وفي قراءة محتملة أخرى للعبارتين الأخيرتين: فنن استقر في الدماء وجب أن يستقر معه تقلب الفؤاد. وليس لك أن تلاحق المرأة أو تدعها تسليك الرشاد).

وامتدح الحكم عن خاشقجي الزوجة الفاضلة بقوله: "نسمة المقتنيات زوجة رشيدة".

(ولاحظ بقاء فكرة اقتتاء الرجل لزوجته في مثل التعبير الشعبي عن الزوج: "اللى قاتلها حتى الآن").

وفى أن الزوجة التي يعزع التفريط فيها حتى ولو حرمت من الإنجاب:

لا تنهج امرأة في دارك لأنها عقيم، وقال: "إذا تراست المرأة مع زوجها فذاك فضل من الذب". كما قال: "وحيداً لولخص قلب المرأة وقلب زوجها من البعض".

واعتبر عن خاشقجي الزوجة انعكاساً حياً لشخصية زوجها، في أمورصلاحها وأمور طالحها، وقال فيها: "المثل (أشبهك ب)، جسم من حجر لين يتأثر (تشكيله) بأول من يتعامل معه، "أو إن عشقت المرأة مساحاً سايرته في طبعه". "إن أخلصت لزوجها فإن يعاودها سوء". ولكن "يضاع المثل (في) عدم معرفتها" و"إذا تفسد المرأة برضها زوجها"، و"زوجة الأحق يكين أن تضرب أحقها".

***

١٨
الفصل الثاني
الزواجات في التراجم والقصص وواقع الحياة

اعتقدت أغلب التراجم القديمة على إظهار نضال أصحابها دون عيهم، إثارةً منها للذكر الحسن. وهو الواقع ينبغي أن يدرج في الحساب كلياً. في الاستشهادات بميزات الحياة الأسرية في مصر القديمة دون استبعاد بطيئة الحال لوجود عدد من النقواص فيها، وهي نقواص قد تبير تعليق بعضها ويصعب تعليق بعضها الآخر إلا في ضوء تقاليد عصورها القديمة وعائدها الدينية.

وكشفت عن مدى حرص راب الأسرة المصرية على استقرار وترابط أسرته. قرائن عدة. ومنها خطوط قديم لتفسير الأحلام يرجع تأليفه إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ورد فيه ما يعتبر طلاق الزوجة وتعلق الزوجات من الشرور المستمرة، حيث يقول: "إذا رأى الرجل في رؤية لها يخرج فرائه، فذاك شر وتاويله طلاق زوجته". و"إذا رأى وجهه في مرأة فذاك شر أيضاً وتاويله زواجه بآخر". و"إذا رأى أنه ينزع مقعداً من قاربه، فهو شر كذلك وتاويله انفصاله عن حليلته".

21
وعلى الضد من ذلك إذا رأى الرجل نفسه في رؤيا يقراً خطوطًا أو بيبيٍ بحجة الحجر، فذاك خير وبهغ استقرار داره، (أي استقراره مع أهل بيته). وكان خير مأوى ملاءح مصرى تائه أن قال له منتقده وولسوف تماً حضنك بأولادك وترى زوجتك وترى ميلك (ثانية)، وأفضل من أي شيء آخرين أن تصل إلى وطنك الذي كنت فيه بين إخوتك وأخواتك.

وسجلت بعض الوثائق الشخصية القديمة حالاً حضرة لازوروج، مثال Мин،

عابت أحدهم روح زوجته الموتنة حين خيل إليه أنها كانت مسابقة فيها في مأمن من عرض عضل عقبها، فكتب لها رسالة خاصة بقسمها وأروعها في قبرها أاملًا أن تطلع عليها روحها. وناشدته فيها أن تتك عنغبها، وذكرها بما أصله لها من تكريم وحب ووفاء، حيث قال لها ما معناه:

"اتخذت زوجة حين الشباب، واستقررت عنك، وتقلبت في شتي المناصب وبقيت معك، وما تغلبت عليك أو ألحنت هما بقلبك...
وما وإفانك نسراً بالرغمك وتقبلت وشياء منته ضنك... وجعلت حركي يجيئك كلما شاهدوا طلعتك وينحونك بالهدى...
وأحفيت سراً عليك طيلة حياتك.... وما أسأت إليه فكت أو عاملتك معاملة السبى...
وما هجرتك...، أو دخلت بيتك غاربتك... ولم أدع أحداً يبتعد مسالكي تجاهاك... وعندما مرضت دعت خير الأطباء لعلاجك... وما إذاك الأجل جئت في عطالي وبدك كثيرًا على مثواك... وما أنا قد عمت (بعدك) ثلاثة أعوام وحيدًا، ولم أدخل داراً غير دارك... حتى من بيت أخواتك... "

مع تمثل هذا الزوج لروح زوجته لم يبه أنه يتحوط لعندها فهدها من ترف خففي مثل قوله "سأرفع أمرى معك وأقاصيك شفاهة بنفسي في حضرة".
أرباب الغرب السبعة، وسيفصلون بيني وبينك وفقاً لهذا البيان، ويشمل قوله:

"إذا لم تغيز بين الطيب والخبيث، فسوف يقوم الفصل الحق بيني وبينك."

وأشادت بعض النصوص الدينية بدورها بصلاح أزواج ممثلين آخر لم يكونوا يرتضون بدلاً عن زوجاتهم حتى في عالم الآخرة، ولتوعدت جواريهم. وسجلت من دعاهم ما يرجو فيه رجوب الأسرة الاأ لا يعترضه متعترض أو عائق يحاول دون أن يلهم شمله يتوجه وينب، فضاً عن أم وأبيه، أميناً استقر معهم على الأرض أو في السيا، أو طوف بهم على صفحه الماء، على حد قول نص مصر قديم.

وترتب على شيوخ رغبة الاستقرار بين أخبار المصريين القدماء إلى تقليل أخذهم بعدد الزوجات، على الرغم من أن هذا التعدد كان مشروعاً لديهم، وأن بعض الملك والآثرياء وأواسط الناس وتغامهم أيضاً قد أخذوا به فعلاً، وأن القصور الكبيرة لم تقل من الجوارى والسرايا ولملك البعيد لاسيما في عهود الرخاء والترف وسياح الحروب، وكان لئل التزمات الطلاق أثر كذالك في شيوخ الاستثناء بزوجة واحدة، وقلة احتمالات الانفصال بين الأزواج.

وتوكى بعض خيارات الأزواج إظهار العدل بين نسائهم في نقوش مقابرهم ومناظرها تدل على ما كانوا يعدلون به بينهم في حياتهم العائلية. وهكذا قد يصور أحدهم زوجته من حوله يجلسها معاً فوق مقعد واحد ربما ما يعني معيشتها معه في بيت واحد. ويرص من كل زوجة في جانب من مقربرته بما يوفي بمعيشتها في مسكن خاص في ظله. وقد يسجل آخر اسم وألقاب من ينوي له من زوجاته في شيء من التكرير كما يحفظ لأبنائهما من أو منح حقوقهم في ميراثه، جباً إلى جنب مع حقوق زوجته الجديدة وأولادها منها مما يرد تفصيله في صفحات تالية.

ولم يقتصر الفضل على خيار الرجال وحدهم، وإنما امتد كذلك إلى فضائل الزوجات، وفي حدود ما سجله غالبية النصوص والمناظر القديمة عن أهلها، يبدو أن معظم الزوجات كان يقبلن وفاء أزواجهن بالحب.
والطاعة. ولم تثبت زوجة أن تعلن تعلقها بزوجها باللفظ والصوره، كأن
يصورها فنان وهي تعطر صدر هذا الزوج بالطيب، أو تخفي له أطабот
الزهرة، أو هي تجاسسه وهو يلعب بالنرد، أو تفت خفية بشراب، وهو
يبارى فيه قريبًا عزيزاً. ولم تثبت أن يملّها مثلها وهي تحتضن خصر بعلها
بساعها وتلمسه بالساعدي الآخر، كأنها عن تعلقها به واعتمادها عليه، أو
وهي تبكي لدى قلبي في إعجاز وإكبار وحية، على الأقل في أوقات الوفاق
والوداد بينها.

وعم صعوبة تحقيق السكينة في بيت يجمع بين زوجتين أو أكثر من زوجتين
لرجل واحد، بل وتعهد الرجل في عقد الزواج أحيانًا بعدم زواجه بأخرى يناء
على إصرار عروسه ولا ترض للا暮ら والترمز بتسميع مناسب، روت
بعض المصادر المصرية القديمة أبناء طريقة عن ضرائع قرانات متسلسلات
فصوصت إهداءهم على سبيل المثال ولم تكون منجية، مع ضرائرها النفس
الأخيرة مدن والمودة بصيحون أبناء أبناء، لمشاركوهها مع الحياة في مناظر مقبرة
زوجها أو مقبرة الأسرة، وهمدون لها الهدايا والقرابين وهي على أعباب
الآخرين، كما لو كانوا من أبنائها.

وروى نص قديم أن سيدة شنت من إمكان الإنجاب فأوحت إلى زوجها
أن بنى بأخرى ابتغاء الخلف، ففعل، وكانت أشبه بحثة أو جارية لها. ولما
أنتجت له هذه الأخيرة بنين وبنات وقررت عليه تهم، رضيت السيدة بالامر
الواقعي وتبنت أطفالها تابعتها التي أصبحت ضررتها، وخصوصاً من
ثرتها المتواضعة، والما شبا بين الطفولة زوجه أخاهما بناً منهما (ويدان أن
البنين من جهة الأختها لم يكن كافياً لجعل المتنابة من المحارم بالنسبة إليه).
وسجل مصدر آخر تساعاً فرداً بين ضريرين أخرين أطلقته إحداهما اسم
ضربتها على ابنها، وأطلقها الثانية اسم ضربها بالتالي على بناتها الثلاث كاسم
ثان أو اسم تدليل، اعتراها منها بتبادل العورة بينها، وتلك كلها استثناءات
معددات بطبيعه الحال.
وجسدت الأساطير الدينية مثالية الزوجة الأم في شخوص عديدة
معبدات، أشهرهن هي الربة إيزيس (أو أوبريس) التي صورتها القصص بشعار
بشرية خالصة، يتعاقب فيها الوفاء والصلاة، والسماحة والحنان، والرحة
والنقمة، وفق مقتضيات الأحوال.

وكان إيزيس، فيها أستهر عنها، أختا وزوجة للمعبد المصري القدم
أوزير (أو أوبريس)، فعاشت معه كأوزير الأساطير على أبعد ما يعيش به
الأزواج، وشاركته هداية الناس إلى ما يفعلهم، حينما تولى حكمهم في بداية
عمران البلاد. ولكن الحسد والحقق استعر ضده في نفس أحدها ست (أو
سوتخت) الذي كاد له وفتك به واغتصب عرشه.

ولم تخضع إيزيس للغاصب القاتل، مع أخوته لها. وظلت وفية لزوجها
الشهيد، وأبعت أن تجعل له خليفة منها يسير على نهجه. فاستعانت بالدين
السحر حتى ردد عليه روحه وحملت منه حملاً رياضياً، وأنجبت منه ولدها
حوز (أو حورس) كأوزير الأساطير. وعملت على أن تشوى هذا ابنة
النشأة القرمية الصالحة على خفية من أعدائها. ثم عارنته بعد أن بلغ مرحلة
الفتنة عن أن يسترجع عرش أبيه ويتنتمي من قاتله وهو عمه ست (أو سوتخت).

وجاهدت إيزيس مع ولدها، وشَرَرت بأخويها وخصمها ست لدى الأرباب
والناس، وكانت له عدة مرات. ودفعت ولدها إلى قتال جهوة، وشاركته في
مقاومته، وأمكنته منه. ولكن ما أن أوضحت ست على الهلاك واستنجد بها حتى
رققبها خله، واستجابت لنداء الأخوة والدم على الرغم من خصومته
لزوجها وولدها، فأنفخت من القتل، واكتفت منه بأن أفقر لولدها بعرشه
المسلوب وارضي الولاء له.

***

25
استحبت قيم المجتمع المصري القديم الزوج الجاد الوقور الغيور، وأبنت الخلاعة من الأنثى. واستنكرت دخول شخص غريب على ربة الدار في غيبة زوجها. وقضت بالقتل حرقًا أو غرقًا أو ذبحًا عقابًا للزانية ذات البعل ومن زنيها.

وجنباً إلى جنب مع روح التحفظ والمحافظة التي غلبته على الفكر المصري في معظم عصوره، بقيت ثقة الرجل السوى زوجته غالبة على ما واعدها. ولم يؤد حرصه على حسمتها إلى النزاعات النقاب أو إيقانها حببته دارها بالضرورة. وقد صورت الإناث المصريات سلائرًا دائمة. وكثيرًا ما صور الرجال يصمبون زوجاتهم وبناتهم وبناتهم خلال وقائع الصيد والنزهة في الحدائق والغدرا. ولم يائبه المصري في خروج زوجته مصطحبة أطفالها لزيارة الأقارب، مملوءة في محبتها أو مبتعبة بخدامها. وإذا مرضت لم يكن يتأبه أن يعودها الطبيب في دارها. وكان من فخر الملك رمسيس الثالث ما فرره لبلده من أمين وسلام أن قال إن المرأة في مصر استطاعت في عهده أن تبلغ أي مكان تقصده دون أن يعترض طريقها من خشية (وكانت هجرات أجنبية كثيرة قد توافدت على الحدود المصرية قبل أيامه وعمل على إيقاع الهزائم بها وKEEP AT A distance من البلاد وأهلها).

ولم يؤد تحفظ الأسر المصرية القديمة إزاء الآراء إلى أن توصى أبواقها في وجود الزوج، دون الأقارب والأصدقاء. ولم تقل أمسيات الأسر الثرية من دعوات للرجال والنساء صورًا مناظر المزارب، وفيها يجلس كل زوج زوجته على أريكة عرية. أو يخت الرجال مجلسًا يجمعهم، وتجتمع النساء في مجالس آخر بجاورهم. ولم تفتك عائلة تلك من رقص الجواري وصدو الأغاني، وعزف الأوّار الذي غالبًا ما كان يقوم به عازف أو مطرب مختبئ قرب البصر حتى لا يخرج الدعوات بنظاراته (وهو تقليد يبقى متبعًا في المجتمع المصري إلى ما قبل عشرينات قليلة من الأعوام).

ولم تأل قيم المجتمع أن يذكر الزوج زوجته في نصوصه على أنها محبيته وأنها مستقرة في فؤاده (معشاحة في قلبه) وجلبته التي يجب أن تؤكله عن قريب.
ويعوي أن يجادلها. كما لم تأتي أن تصور الزوجة أو تمثل في مفهومها ومقبراتها وهي في أفيزيتها وأوقات ثيابها.

ودم تخرج النصوص الملكية ذاتها من وصف الملكات بآيات الألوان الراقية المستحبة، على رؤوس الأشهاد، كأوصاف ذات الجاذبية. بحياة الطلعة، حلوة المحبة، ذات المسرة، سميكة الملك ورفقته، المستقرة في قواتها. وذلك إلى جانب الإشادة بشخصية بها أاضته على مر من ألقاب السياحة والفضل والخصافة. ولم تجد بعض هذه المصادر غضبًا في أن تصور الملكة أحيانًا وهي تلاعب زوجها الملك الدامة، أو تصبح في عريته، أو تنظر صديده بالطيب.

وتختير له أجمل الزهور.

ومع أهمية ما تقدم الاستشهاد به من مجاملة المرأة في تعاليم الآباء والحكام، إلا أنه لم يكن من المنظور توقع الحسبي مهنئًا على سواء. وقد وجدت اتجاهات أخرى في المجتمع أساءت النظر بين لا يستقيم أمرهم من الإناث. وهكذا أضاف الحكم بناح حوتب قوله في شيء من المبالغة وهو يذكر ولده من مغبة الاختلاط المشية: "توجب نظافة (مجالس) النساء، فما طاب مكان حلقن فيه، ومن سوء الرجال أن يتلصص على مهنسان. وكم من أمراء قبل من رشاده حين استهواه جسد وهياج ثم لب حت تحول عنه إلى هباء، وغشت لحظات متعته الفضار أضاغت أحلام، وربما أودت به إلى الهلاك".

وعقب بناح حوتب على تذكيراته هذه بعبارات تشبث الأمثال الساذرة، قال فيها (هساق الفتي إلى الإنث وهي يبه، ألا تفعل الإنث فإذن عار، وانقض نفسك من تأنيب القديم كل نظر). واعتبر الزنا من كبار الفواحش التي حرص المصري على أن يعلن براءته منها أمام أرباب الحساب في الآخرة. فقوله في دفاعه الإنكاري عن نفسه "إن لم أكتب الفاحشة مع إمرأة"، ولأقر ما يدنص عرضي، ولم أكتب خطيئة تدنس نفسي داخل معبد إليه الدين الطاهر".

77
وكثيراً ما وصفت المرأة اللعوب أو بائعة الهوى بأنها غريبة أو أجنبيّة، ربما لواقعها ونشردها في البلاد، أو استنكاً من نسبتها إلى المجتمع الفاعل.
وقال الحكميّ آن عن مثلها: «كن على حذر من المرأة العربية التي تتسلل خفية خارج بلدك» لا تبكي خطاه ولا تبكي على اشتهاء... إن المرأة البعيدة عن زوجها لجنة عميقة لا تدرك وجوهها حين تلح عليك لمحادثتها في نعومة ولبن، وهي توقيقبل حين لا يكون هناك شهود وتلفك بحبائلكه، وتلك خطية كبرى تستوجب القتل حين يصغي إليها».

وتعلقت على الأسر المصرية الثرية مورقة لم تتردد بعض نساءها في أن يعقدن مجالس الشراب ببيوتهن، ويسروف فين. ولو أن شرابين لم يكن مسكراً عنيفاً دائماً، وإنما كان مه إلى جانب الحمر المتعددة، مشروبات تشبه البيرة الطازجة وسوبوش الشعير.

ومضت القرون وتزايدت العناصر والعادات الدخيلة في تكوين المجتمع المصري القديم خلال عصوره المتاخرة، ووجد الحكمي عنق شا شنقي من ظروف عصره ما جعله يجد ولده من الزوجة الجميلة (أو مفرطة الجمال)، والزوجة الذليلة، الزوجة المتغطرسة، فضلاً عن الزوجة الخليعة. وسماح له بتلميدها وضربها، على شريعة ألا يشعوها.

ولأمر ما تشدد الحكمي نفسه في شأن هذه النوعية من النساء، قائلاً في عبارات مورقة غلب عليها الأسلوب الدارج والنقدي الصريح: لا تأخذ كلام المرأة في بالك - ولا تفتح قلبك لزوجتك إلا ذاع سرك - وإذا همّست المرأة عن زوجها فلن يعودها خير، وإذا استنشق الرجل عبر المرأة كانت امرأته قطة في حضرتها - ولكنه إذا خرجت امرأته لبؤة في حضرته - وإذا جعلت امرأتك حارسة على مالك تطلع إليه (دوماً) ولا تدق بها (كل اللائق) - (ربما ما يشبه المثل الدارج الحالي: حر ض من صاحب ولا تخونه) - وإن لم تعتن المرأة بتقتنيات زوجها كان هناك رجل آخر يشغل بها».

28
وليس من المستبعد أن سوء الظن بالإناث هنا كان مورعاً عن الجانب السئي في مجتمع العصور المتاخرة من تاريخ مصر القديم كما ذكرنا، إن لم يكن انعكاساً لصدى ثورة زوجية فاشلة عاشها الحكيم نفسه.

وإستمراراً مع نظرته الشاذمية هذه حذر عن شا شنقي الأئتمين من وقوع القصاص العادل يهم، قائلاً في تعبيرات عامة مكشوفة: "من زنا بامرأة من الطريق كان كمن نقب كيسه وحمل معه" - ومن نكح امرأة جاره نكحت زوجته على عتبة داره - ومن نكح زوجة غيره على سرير نكحت زوجته على الطين" - إلى جانب قوله فيها استشهدنا به من قبل "إذا تفجر المرأة برضاء زوجها". ولو أن هذا كله لا يقلل من قيمة ما سبق الاستشهاد به أيضاً من آرائه في تكريم الزوجة الصالحة ومسئولية الزوج عن صلاح أمرها.

واعتبرت الآداب المصرية القديمة من جانبها بيدوات بعض إثبات القصاص والأساطير وبالفت فيها. فصورа قصة من الدولة القديمة خيانة زوجة كاهن كبير من القرن السابع والعشرين ق م. (بدعى وبا أونر) هامت بحب فتي من مدينة منف. واعتاد الفتي أن يظل بها خليسة في جانب من حديقة قصرها. وإذا قام عنها اغتسل في بحيرة صغيرة بالحدودة نفسها (وهما يدل على قدم مبدي التطور من الجناية في مصر القديمة). وعلم الزوج الكاهن بجريعة العاشقين، فاستخدم السحر في تشكيل هيئة تمساح صغير من الشمع، وتلا عليه أورادا خفية بعثت فيه الحياة، وهينأه لكي يقنع عليه أمواء، ثم أوصى إليه أن يلقف عشيق زوجته إذا ما نزل البحيرة ليغسل.

وعهد الكاهن بمساحه المسحور إلى أحد أتباعه، وأوصاه بأن يلقف به في الماء حين ينزل الفتي. وتم ما أراده الكاهن، فثفل النمساح غريمه ومكث به تحت الماء سبعة أيام كاملة. ثم دعا الكاهن الملك نبا فرعون زمانه إلى داره، واستدعى أمامه النمساح المسحور، فخرج من الماء يد فرتبته بفمه (كما روت القصة)، وارتفع الفرعون من هول ما رأى، وله أفرخ روعه وعلم بالقصة، أمر النمساح أن يفتك بالزائرين جزاً جرمهم، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق وذر رمادها في النهر.
وصورت قصة أخرى من القرن الثاني عشر ق، م، عرفت باسم قصة الأخوين، ما يمكن أن تأتيه الأثرياء اللعب في بيت رفيق صغير. وأشتهيت في وصف الحياة الريفية لأبطالها الرئيسيين وجعلتهم ثلاثة، ابن وهو صاحب دار ومزرعة، وزوجته الفاتنة اللعب، وابن شقيقه الصغير. وخصت القصة بناها هذا بآيات القوة والوفاء والإخلاص، وصورته مؤثرة بسيدة دينانية، وزعمت أنه عرف منطق الحيوان، كما نسبت إليه المهارة المطلقة في شئون الزراعة والرعى.

واعتاد باتا أن يخرج بطيعة أخيه مع الفجر إلى الحقل ليحرجه أو يرويه، ويرعي قطيعه، ثم يعود في المساء محملًا بمحاصيل الزراعة وألبان البقر ويقدمها راضيًا بين يدي أخيه وزوجته. وبعد أن يتناول عشاءه، ينقل إلى حظيرة الماشية فينام فيها وحيدًا قانونًا. فإذا اقترب الفجر أعد إفطار أخيه وقدمه إليه، ثم أخذ إفطاره معه وسباق مشابهًا إلى الحقل والرعى. وكان يحدث أحيانًا، أن تتسار الماشية فيها بينها بأن الكلًا في مكان بعينه وغير نضر، فيفهم باتا قوته ويخفق لها رغبها، ويتتجع بها ما توده من العشب والرعى.

وأما حل موسم الزراعة ذات عام قال له آخره، هبه أعد الثيران للحرب، وها هي الأرض قد انحرس ماؤها وتهيأت للبذور. وآتنا بذور نقرة مكرين. فأطلق باتا وصحب أخاه إلى الحقل، وانشغلا في الحروب والبذور، وفاضتا نفسيهما بالرمل لقيهما بالعمل مكرين في بداية الموسم. ولكن حدث بعد فترة أن اضطررا إلى التوقف عن العمل لذبح الدور. فبعث ابن أخاه الأصغر إلى بيته في القرية وأوصاه بأن يسرع في إحضار المزيد من الحبوب.

وأما بلغ باتا الدادر ألفي زوجة أخيه تضفر شعرها، فناداهما في مرح وبساطة قائلًا: "انهضوا ونواويركمية من الحبوب حتى أعجل بها إلى الحقل، فأختي ينتظر، ولا تعوقيني". ولكن الأخوي تناقلا، وقال له "أذهب أنت إلى غيظن الغلال واحمل منه ما تشاء، ولا تضطرني إلى ترك ضيائدي".
ودخلت بابا المخزن، وأعد غرارة كبيرة، واكتبت شعراً وحشة، ولا خرج بها سأله: كم احتمتت على كنف؟ فأجاب "ثلاثة مكابيل من الحشة وثمانين من الشعر". فحاورته قائلة: "فكيف بأي سهبد، وأشهد أنك تزداد قوة ووسارة على مر الأيام". ودبنت الأثنا أموا في نفسها، ثم هبت واقفة وتعلقت به، وقالت "هية لك، ودعنا نفرح ساعة ونضحك، فذلك خير لك، وسوف أخيف لك ثياباً حساساً". لكن الفتى فوجئ وأجف، وبدا في هيئة فهد الصيد الغضب كا حكت القصة، وارتد وجهه من سوء مدعتا إليه، فأجففنا المرأة بدورها وخشيتها خشية شديدة.

وقال لها الفتى "أنصتي، أنت بالنسبة لي في منزلة الأم، وزوجك في مكانة الأب، فهو أكبر مني، وقد كفتي ورباني. فلم هذا العار الذي تدعيني إليه؟ إنك أن تفتخرين فيه مرة أخرى، ولك من ناحية لا أخر أيضاً به أو أدعه يخرج من فهي إلى أي إنسان". (وهكذا أوركت القصة أن تكون مثيلة لقصة يوسف وزوجة العزيز رغم اختلاف الشخصيات).

واحتملت باتا حملته، وأصرفت إلى المزرعة، فلما بلغ موضع أخيه استأنف العمل معه كذابه دون أن ينسى أمامه بنت شيفة.

وأما في المساء انفصل الأخ الأكبر وقصد داره، وبقي الأصغر مع الماشية حتى أكمل حملته من خيارات الزراعة، ثم ساق مشتته أمامه ليبث بها في حظيرتها.

وخشيثت زوجة أتيو عاقبة زلتها، فاستعتن ببعار جعلها كالمريضة أو كالمضروبة. فلما بلغ بعلها داره وجدها ممدة متالكة، فلم تصبه على يديه كعادتها، ولم توقد المصباح قبل مبيحه، ووجد البار في ظلام دامس فاقترب منها وسالها عنما أساء إليها. قالت: "لم يحادثني غير أخيك، أي يأخذ البذور وألفان وحيدة، فراودني عن نفسي وأمسك شعرني، فألبت أن أطاعه، وقلت له، أمست في منزلة أمك؟ وأليس أخوك في مكانة أبيك؟"
فغضب وآذا حتى لا أشروك لك بفؤاد، فإذا تركته أنت يعيش مت أنا، وأخشى إذا رجع في المساء وفاختحه في عاره أن ينسب إلى السوء.

وأريد وجه الزوج، وشحذ خنجره، وامتنع خناجره، وخشان خنجره، ونرى أن يقتل أخاه حين رجوعه. وعاد باتا بعد الغروب، وجمالًا بخيرات الأرض كعادته، فلما دخلت أولى بقراته الخظيرة هممت له: "أخوك يقف أمامك، وحنجره ليقتلك فاهرب من وجهه". وفهم باتا قولها، ثم سمع مثله من البقرة التي تلتها (كما أعدت القصة) وتعلو أسفل الباب فرأى قدمي أخيه وهو غامض، فتألق حولته على الأرض وأطلق العنان لساسقته، وتبعه أخوه.

وتطلع باتا في مخته إلى معبر الشمس رع حر أختي، وناجاه: "مولاي الكرم، أنت تستلسل بين الأجسام والبريء". فاستجاب رع لدعائه وفصل بينه وبين أخيه نهر عظيم ملألته التماسح. وضرب الأخ الأكبر كفي من الغيظ أسفًا، نفادا أخومن من الضفة الأخرى: "لز مكانك حتى يطلع رض الشمس ونحنك إلى إله".

وجبل رض الشمس رع حر أختي مع الصباح، وطلع كل من الأخين إلى الآخر. فقال الأصغر لأخيه: "لم طاردتي لتفتقلي قبل أن تستمع إلى دفاعي؟".

الست أخاك الأصغر وأنت أب لي؟ إنك حين بعثني لاتك بالبذور دعتني امرأتي إلى الحنا، ولكنها روت لك العكس". ثم لقي قصته عليه، وتغطيه العبارات، وأرد أن يجمد القضية فاستنا بريعة حادة تخفي نفسه أو قطع إحليله ورميه في الماء، ليثبت لأخيه زده في الحنا وأهل الحنا، وكاد أن يغشى عليه من فروق الألم. وندم الأخ الأكبر على ما كان من نهوره، ولم يتمالك نفسه فبكي ولكنه عجز عن أن يصل إلى أخيه ليستره خوفًا من التماسح.

ونادي باتا أخاه مرة أخرى "إذا ظننتي بي السوء مرة، أفلا تذكرت لي خيراً فعلته من أجلك؟" عدي إلى دارك واجمع ماشتكك، فلن أمكث في أرضي تعيش فيها، وسأذهب إلى وادي الأرز، وأرجو أن ترجع إلى نجدك إذا علمت أن سوء أبي بي، وسأعثر على شمسي وأضعه فوق زهرة شجرة أرز. فإن
حدث أن اجتت أحد الشجرة وسقط قلب فابححت عنه، ولا ظل البحث ولو أنفقت فيه سبع سنين، فإذا وجدته ضعف في ماء بارد، ترد على الحياة، وتسوف تعلم آية سقوطه حين تقدم إليك كأس جعة فتجدها أزبدت واعتكرت، فإن حدث ذلك فلا تبون عن الرحيل إلى ونجذب، وانطلق الفتي إلى مصيره وحال سببه، وعاد أخوه إلى داره يعمم التراب على شعره ويضع بده على رأسه، ثم اندفع هائجاً فذبح زوجته ورمى جسدها إلى الكلاب، وعاش يكي أخاه.

وأسرفت القصة في الخيال وتصوير المعجزات، وروت أن باتا حين فارق أخاه بلغ وادي الأرز في لبنان، وأن الأرباب عوضوه هناك عن عفته بأنش رائعة الجمال، أحدها وأخليص لها، ولكنها عاشرة هي الأخرى على دخل، ربما بعد أن وجدته عنها. ثم حدث أن نقلت أموج البحر خصبة جزء من شعرها إلى حيث يوجد ملك مصر، فسحره عطرها وأرسل رسالته يبعثون عن صاحبتها، فقلت لهما باتا إلا واحداً عاد إليه غيره بمقتل زملائه، وعاد الفرعون فارسل إليها جمعة أخرى ومعهم امرأة عجوز تحمل إليها عطابها، فقبلت الزوجة هداها وانذرت إلى سلطانها، وصحت رسالته وسافرت إليه وتقربت منه، وأوحت إليه بإهلاك زوجها وقطع الشجرة التي اثمنها على قلبه، فاستجاب الملك لكبدها، وأمر بأن اجت الشجرة من جذورها، فمات باتا.

ولكن أخاه تنبه إلى آية انتكاس كأس الجعة في يده وظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى وجدته، وترفض إلى الأرباب فيوتوه في خلق جديد، وأراد باتا في بعثه الجديد أن يرد على زوجته عاقبة غيرها، فليك لها في هيئة نجل شديد مرة، وهيئة شجرة مثمرة مرة، وكلما كشفت أمر حرضت زوجها الفرعون على إهلاكها، ولكنها ظلت تنهب في نعوم فاتر وقلق متصل حتى حمص الحمق، وعرض الأرباب زوجها القديم بعرض مصر وملكها العريض، فقبض رجالة عليها، ولم يشأ هو أن يقضي فيها بنفسه، وتنعم معها إلى القضاء، فأدانوها في حضرية الحشوات المقدسة، ولقيت حتفها.

(م 3- الأثر)
ذبحا جراء جرمها. واعتبر المثقفون المصريون هذه القصة من عيون الأدب المقدس.

وصورت الأساطير المصرية الدينية لبعض الرؤيا ببطشة دونا بطلشات الأرباب الذكور، فتخيلت وراء الزوايا والأعاصير العلية الرهة "باستس" التي صورت برأس قطة، وتخيلت للحرب ربة أخرى وهي "سمحة" أي المقدورة وكانت تصور برأس لبؤة، كما جعلت من رموز الرهة نية كوسا وجنابة سهام باعتبارها من ربات الحرب وحَدَة الملكية. . . وهم جرا.

وزعمت إحدى هذه الأساطير أن رب الشمس رع بعد أن أوجد ذاته بذاته وخلق الدنيا وأصبح ملكاً على الأرباب والبشر أجمعين، تقدمت به السكوش، فأثار ضده سير من أشرار الناس، وفرعوا بنعمة، وانشروا في الصحاري يعيون وساداً فيها، فسق عليه كفههم وطغيائهم، واستشار بقية الأرباب الكبار في أمرهم، فأفتتح شيخهم "نون" ألا يرحع العصاة بشخصه خشية أن ي لاكروا وتنفى الدنيا معهم. ودعاه إلى أن يبعث عليهم عينه. فأخذ رع إله الآله بمسيرته وسط عليهم عينه، فتشكلت العين في هيئة المعرفة حتجور، وفتحت بالعصاة فتكاتا ذريعا وشربت من دمهم، واستمرت طعم الدم ولدده الانتقام بحيث بدأت تأخذ أرباء الناس بجرير العصاة، وأوشكت بهذا أن تفتي البشر أجمعين. لولا أن تدارك الرب الآله البشر بريمه، وأوجى إلى أوللاته أن يبحثوا على فتاتها العائدة بشراب مسكر عصا يبعث التراكى في جسدها ويسحقها عنهنها. فروا الحقيل بأبهاء من الجمسة، وخطروا الجعة بسحراً آخر جلبهم من أسوان (حيث يوجد أوكسيد الحديد). فأخذه حتجور حسبه دما مسفوكاً، وأزغت فيه وشربت منه بشرى حتى انشبت، ثم شعرت بخدور، وتراخت عن التمادي في القتل والعنف. ونها الناس من بطشها بفضل رجا الذي غلبته رحمته على نقمته، وهي خاصية كريمة له ردتها عنه عدة نصوص أخرى.

وفي مجال الواقع تطرقت المشكلات الأسرية والخلافات الزوجية إلى القصور الملكية ذاتها، من حين إلى حين. ورغم تحفظ النصوص المصرية
القديمة في الخروج فيها والإسهاب في تفاصيلها. اشتهرت منها حالتان على
أقل تقدير. وترجع أولاهما إلى فترة من القرن الرابع والعشرين ق. م. و
حيث اتهم بيبى الأول زوجته إمتس في أمر أثنا وربما بعدها وأعترف أيضاً
وهو أمر لم تفضح النصوص المعروفة حتى الآن عن كثب، وقد يكون خيانة
زوجية، أو تأمرها من هذه الزوجة على إحدى ضرائرة الأثيرات لدى زوجها. أو تأمرها على
أو تأمرها على أحد أبناء هذه الضرائرة للخيلولة دون بلوغه العرش، أو تأمرها على
زوجها الفرعون نفسه. ولم يشأ الملك بيبى أن يفرد بساءه زوجته أو أدانتها،
وعهد إلى أحد كبار رجال بلاته وهو «دون» بالتحقيق معها، فإنه وافق عليه
تقريره. ومرة أخرى لم يسجل التاريخ فحوى هذا التقرير ولا قرار الملك
بشأنه... ولكنه سجل من ناحية أخرى أن الملك بيبى تزوج (بعدها) بابته وأبي
الصعيد وكبير أعيان جرجا في عهده، وأنجب منها ولي عهده مرنر، وربما
تزوج كذلك بأخلاقها (بعد وفاتها؟) وأنجب منها ولي آخر ولي العرش كذلك
بعد أخيه باسم بيبى (الثاني).

وسجلت أتت الوجهة الأخرى في وفاة عن عهد الملك رمسيس الثالث في
فترة من القرن الثاني عشر ق. م. وكانت معركة صرخة دبرتها زوجته له ذاع
غضبه عليها إلى حد أن تجاوز الفتنان إثبات اسمها مع بعض صورها في معبد
شيد في عهده. وربما كانت قد أحسست برغبته في إقصاء ولدها بنتاورة عن ولاية
العهد، فتأمرت مع بعض سفاح البلاط وحريسه وحريسه وخدمه ليؤذنها في
مسعها. واستعان الملأتون بالبحر أو ما تولوا أنه البحر، ووجدوا في
مكتبة القصر الملكية ما يهدفهم إلى عمل مثال لن اسمه صنعها على هيئة
حراس الملك وتنوا عليها تعاونها خاصة ليلقوا على أصحابها السبات وضعفت
عازمونهم. ولكن المؤرخة الكشف أمرها وتولى التحقيق فيها 14 عمقةً وقادياً
انتهوا إلى إدانة للأمر بركة وثلاثة من أعيانه الكبار وتركوا للمؤرخة أن
يتحروا بأنفسهم. وقيل عن عدد من نسوة أدواتهم إنهم كان يتبادلين الرسائل
مع أمهاتهن وأخواتهن سراً، وحرصاً على واحدة منهن، وكان من ضباط
الجيش المصري في النوبة، على إثارة الشغب وشق عصا الناسعة. وبعد تحقيق
طويل قبل عن ست ستهات إنهم وجدوا ذكرات ونفتذت فيه عقود رادعة، كما
اتهمت اثنتان برشوة اثنين من المحققين القضاة عن طريق الغواية وشرب الخمر. أما مدى ما أصاب الملك خلال الموائمة وما صار إليه ملك المملكة المتأمرة فكلهما لا إزال موضعًا للجدل حتى الآن. وهكذا لم تخل أيام الأمر المالة نفسها من مشكلات لولا أنها كانت تحسن الخزف قليلة مبتعدة.

وإذا بلغ الأمر مثل هذا المبلغ في الأوساط العليا من المجتمع، وليصور استثنائية مبتعدة، فلا يعد أنما هو أسوأ منه من العيب الاجتماعي كان يتكرر من حين إلى آخر في أسر الطوائف الدنيا من المجتمع لاسيما طوائف العمال ووضاغ أرباب الحرف وبعض الشردين من أشباح الغجر. وظهر في بعض تقارير قرية عمال المقابر في منطقة دير المدينة بغرب طيبة ما يملل تغيب عامل عن عمله بمشاجرته مع زوجته، أو أبناها عضته عضة خطرة. ومثلما ندد بسلوك خمس نساء وصفته إحداهن بأنها زوجة رجل معين، بينما قيل عن الأربع البائقات إين كان يعاشرن عملاً. وبلغ الأمر أن تطالب ابن آبى على أبيه واتهمه بأنه اعتدى على ثلاثة نساء من نساء بلده - وكاً أدبت بعض النساء على سوء السلوك أدين بعضهن كذلك بارتكاب السرقة وشهادة الزور.

 ولم يختلف عقوبتهم كثيراً في كل حالة ما كان يعاقب بمثلها الرجال.

ونسب المؤرخ دبودور الصفاق إلى قوانين العقوبات المصرية القديمة أحكاماً لا تخلو من غرابة فيما يخص بعقوبة بعض الجرائم الأسرية. ومنها فيها روى إجبار من يقتلون أثليهم على احتجاز جثة فقيلهم ثلاثة أيام تابعاً ليستشعروا الأم ويفكرون في النوبة، وذلك عوضاً عن الاقتصاد منهم بالقتل المباشر وتفنيداً للأمر الواقع من أهمهم الذين وجب أن يعاقبوا في الأصل فرصة الحياة. وعلى العكس من ذلك قررت شدة التهدي البدن بالأبناء الذين يقتلون من منحوهم الحياة أي الآباء، بحيث تقطع أجسادهم إباأ إرباً وتشوى على فواش من قاد. ثم النص على تأجيل إعداد المذنبة الحامل إلى أن تضع جلتها حتى لا يؤخذ الجنين البريء بذنبها. واستشهد دبودور في كل ذلك بتراث لا تخلو من منطق سليم وإن صعب التأمل براويه عنها جلته أو رفضها جلته في ضوء قلة المصادر القانونية المصرية القديمة المعروفة حتى الآن.
الفصل الثالث
سبب ما قبل الزواج، وأزياء الأثاث والرجال

تراوح اختلاط الفتى والفتية قبل الزواج في مصر القديمة، بين اختلافين، اتجاه جاذب متحفظ أصغر الآباء والحكام والمربون على ضرورة الالتزام به. وكانوا يجذرون في تقبيلهم في زيارة البيت في غيئة رجاءها بغيرة استثناء. وينكرن على زائر البيت، ريساً كان لصاحبه أو صديقاً أو شقيقاً، أن يخالط النساء وفتياته. وكان اتجاه استجاب له معظم الأبناء والبنات بوحي الطاعة الغالية وحب الاحترام.

وغالباً ما استقبلت غرف النساء والمعيشة في البيوت الكبيرة ببطاق خاص أو جناح منفرد يميزها عن غرف الضيوف وعن أماكن إقامة الأثاث.

وقبل هذا الاتجاه اتجاه آخر أحمله أهل العشق والهياج والمراهقون عن الفتى والفتية. وعبرت عنه بضع أغاني وأهديتها غزلية باقية بصعب أداؤها الآن بأوزانها الفعلية القديمة، ويكفي إيجاز فحواها هنا بعبارات مرسلة. وفيها يصر الفنين على أنه لو فصل ببيته وبين عبودته ببحر الخطا، أو تساح لاقاه. ويوذ آخر لو تمرض وزارته حبيبته مع من يعودونه من الأقارب.
والخلتان. ويتميّث ثالث لو وجد باب فتاته هشا من قش جاف ومزلاجه من غاب فيدفعه إليها غير وجل ولا هياب. وتزيد الرومانسية بإبراع يتميّث أن يسحر وصينته لمشوته حتى يخل له رؤياها. أو يصبح تابعا لها يسمع أومراها وتواهيها. أو يسحر خافتاً في إصبعه فيعقل به ولا يفارقه. ويتطلع خامس إلى عون معبوداته عساه يتوتاً له لقاء الخيبة دون أن يتوهم في لقائه بها ما يجافي العقيدة. وينجر سادس فيعود برقيا يقول لمعابده فيها: «لكن لم تجعلها تبتعي فلسوف أشعلن ناراً في بوزير ولأحرقون ضريح أوزير». وكان أوزير هذا الذي هدد الفتى بإحرق ضريحه هو أحج معبود إلى قلوب قدامى المصريين.

وفي سياق ترانيم الموى العذري، وفي شيء من التخفيف من قيود اللغة الفصحى، قد تشهد الفتاة العاشقة بدورها مرادة في تعبيرات دارجة:

**صوت الحمام مهدّل وقال: عنى عنى بفرح الحمام ده خبي في قصر المنام زال الابعاد أبداً ما أفاركك أروح وأجري دائماً أصحابك هو الل سواكن ست البنات وهاك وما عمره أبداً خان الرداد!**

وتقول أخرى:

أنا بسأبح نص شعرى ونسنيت أنا نص شعرى أعمل ضفايرو وأعود إليك...

وفي أغان أخرى قصيرة قد تذكر بعض الفتيات إلى ما هفنا إليه أشقياء الشبان. فيفضن برقبة الأم تارة، وستعذبها لتشويق ابن الجيران تارة أخرى. ويرضهن أن يكون الموهبة بناء الجوئ تارة، وبحين ما يكونون به من نار العنان تارة سواها. ويلغ الإصرار بإحداين إلى أن تعلن لأهلها أنها لن
تنخل عن جيدها حتى ولو أذوها بالعصي وجريد النخيل والشمر، أو ساقوها شمالاً إلى الشام وشردوا جنوباً إلى النوبة والسودان. وتنخل أخرى نفسها رائحة غادية أمام إلفها عساها يعلق بها وهج أمه وأشقاءه من أجلها. أو ترنو إلى السباحة في غدير قريب حتى يراها بغلاناتها البيض ويتجرر من التردد وخشية التقاليد. وتعمل أخرى لأمه بالخروج لقصص الطيور وتنص أن يقع فتاه في حيائلها عوضاً عن الطيور، وحينها تلمحو يشرذ ذهنا عن صيدها وسلتهم الطيور طعمها، وتعود وهي لا تدرى ماذا تقول لأمها.

وينفذ صبر فتاه أخيرة، فتعمل الرعاية السعيدة، وتحاول نفسها على تنخل فتاه مستمطاً لها، وتقول: هلا بعشت خيراً لأمي! يا أخيها قد نذرت لك نفسى، وبشرتى الذهبية (حتحور) بأن أكون عرساناً لك. تعال إذن وعجل حتى أشهد بها، ويسعد أبي وأمي (برواك)، ويليل لك الرجال ويعلنونك أخي!

وفي هذا الحديث التنخل ما يشير عرضًا إلى خطة اللبند من الأم حياناً، والرضى من العروس، وتزكيه العريس، واستخارة ربة الحب (حتحور)، وموقعه الأبويين، ووجود المدعوين، ثم إعلان أخوة القرآن السعيد (بعد الإجراء الامام وهو إجراء العقد).

وفي نثر منظوم، صور عاشق مصري قديم مواقع الجمال في حيويته بأنها "بهية الطلعة، بششرتها وضاءة، نجلاء الأميين ونحاز، حلوة الشفتيين، عذبة الحديث، لا تتطق بفضول" طريلة الجيد، زهرة الردى، كستانية الشعر، أناملها كالزهر، مملكة العجز، نحلة الخصر، متزنة الخطو... "

***

41
زينة وأزياء النساء

إشباعاً لغرزة الأثنيّة، أي أنهن في حب التجميل والاناقة، والفتنة والترنيّن، تجتذب المصورات بما استطعن التزين به، منذ أوائل الآلف الخامس قبل الميلاد على أقل تقدير، بناء على ما صورن به في المآذن وعثر عليه من أدوات زينتهن في بقايا المساجن والمقابر، واستعين بالكحل والخضاب والأصباغ والحلى والطيب وأززاء الياب وتصفيفات الشعر، بما تناسب مع نوع ما عاصرن من العهود والبيئات والأذواق وما تلاهم مع مختلف ما توفر لديهن من القدرات المادية، ونوعية المناسبات، شاهد في ذلك شأن غيرهن من بنات حواء.

واعتدات المصرية القديمة حين زينتها أن تزجّع حاجبيها وتظلل جفنيها وأهداب عينيها بالكحل الأسود. وتتمد به قليلاً في ركن العينين من ناحية الأنف، كما تمتد به أفقياً بشرطة العين ناحية الصدع حتى تبدو العين أكثر اتسعاً ويزداد بريقها أو حوارها تألقاً، ثم تلون ما تحت الجفن الأسفل بالكحل الأخضر.

وكان تصبغ شفتيها بحمرة كالقيق، وتلتين بشرتها وتضمغ جسمها بدهون عطرة. كما تغذى شعرها وتزيده نوعاً ولوناً وأنواع من الزيريت.

وكان تضب كفيفها وقدميها بالحناء، وتطوّق جيداً وجبته وجانب رأسها بالزهور. وتتمبيط بالطيب، وتعطر فهماً وأنفاسها ببلدان طيبة النكهة، وتحب تنحير الياب. فضلاً على التزين بما تستطيع اقتناءه من العقود والقلائد، وأسوار الرسغين والدمالج، ثم الأقراط والخراشيف والحواتم والتمام، ودبابيس الشعر وأكاليل الرأس، وما إلى ذلك من مصوغات أبدع الصاغة القدماء، تشكّل أنواعها الفاخرة أياً إبداعاً، بحيث لازالت مجموعات الفنون ومتاحف الآثار العالمية تفخر بروعة ما تقتنيه منها حتى الآن.
وتنوعت الثياب النسائية، كما تنوعت الحلي، بتنوع العصور والإمكانيات. وسوف نكتفي هنا بخطوطها العامة دون تفاصيلها الجرخية. فقد شاعت المساجات الجسدية بنوعياتها المختلفة (للنساء والرجال) دون المساجات الصوفية. واستحبت المصرية لثيابا اللون الواحد في أغلب الأحوال. وفضلت اللون الأبيض، الذي يناسب مع سمرها وجرخها أكثر مما عداه من الألوان إلى جانب نصاعته وسهولة تنظيفه. وقليلاً ما استحبت معه اللون الليمون أو الزعفر، واللون الأحمر الفاني أو اللون الأخضر الزاهي.

وكان ثيابها في أغلبها طويلة، ولكن أزياءها تنوعت بين الضيقة المحبوكة على الجسم بحيث تحمل مفاتيح وثيرز تقاسيمها، وبين الفضفاضة الرقية التي تشكو بدورها عن الفساد ولا تتحب جمال البدن. وتنوعت الغلالات عن الثياب بين الطبلسان أو الوشاح وما يشبه الرواب المنزلي، وبين الرقية ذات الهامش التي تشكو عن كل أو عن جزء من النحر والكتفين، وتهبط حاملة مستقيمة أو مائلة أو متقاطعة على الصدر، بما يشبه القميص الداخلي، فضلاً على الثياب ذات الكتف الأيسر دون الكتف الأيمن الذي يتص منته ما يقطع تحت الإبط.

وبدأت الأزياء المصرية بثياب قليلة الزخارف والكثافة، واكتفت قديماً بتوبيخة فتحة العنق وثر بعض الوريدات المخيفة فوق الدهليين. ثم تطورت مع الزمن واستحبت التموجات والسيمات (التي تشبه زخارف البليسيه)، والكتشكشة عند الثديين وتحت الإبطين و فوق السرة، وخفف أنغام الإبرة، ثم ما يذكر هذه تلك من رفائه ملؤها، وزخارف تشبه فلوس السمك وريش الطيور، وأحزمة موشاة ومرضة.

وقد كنتيتي الأشي في زينتها بثوب فاخر واحد، أو تسبيء ثوبين أسفلهما شفاف وثانيها عبارة عن شبكة خرز كاسية متنوعة الزخارف، أو شملة ذات لون واحد تلف الجسم كالعباءة. وقد تزيد الأشي الثيرة في هذه ثلاثة أنواع.
وتأتي في موضة العصر، وطبيعة المناسبات، وبناء على الذوق الخاص. فقد تستحكل المصرية الشعر القصير نسبياً وتركيه جيناً على جانب وجهها إلى ما تحت الأذنين أو حتى الكتفين على هيئة هالة البدار، حتى يريد وجهها استدارة واستتباع. أو تصفجه جيناً آخر على هيئة القوقعة حول رأسها وكتفيها. وقد تستحكل الأثري الشعر الطويل وترسل غدها المريضة ملتفة الأطراف منحدرة على كفيفها وعلى صدرها حتى نديها. أو تفرز شعرها الطويل أيضاً فرقين متشابهين، فرقاً يزف 긍 الظهر وفرقى زين جانبي النهر. أو ترخيه كله ممشطًا طبقاً على الظهر.

ثم هي قد تضفر شعرها في ضفائر طويلة مرسة على ظهرها، أو تجمعه في غديرة واحدة سميكة خلف رأسها وتقف عليه هي ما يسمى الآن ذيل الحصن. وقد تضفره في ضفائر قصيرة متجاورة وتطلق بعض شعيراته على صدغها لتزيدها نورانية وجهها وجاذبيته.

وغالباً ما كانت السيدة الثرية ترتدي باروكة الشعر المستعار في السهرات والمحافل العامة، وتركيه مرسلًا حتى رده فيها، أو تضفره في جدائل طويلة وتقف أطرافها السفل على هيئة الخواشى والأهداب. وقد تشرى البازوكة مجددة الشعر في أسماء دفقة للغاية مثلة أو مربعة أو مستديرة. وكثيراً ما استعامت عن ثقل البازوكة الكاملة بخص وضفائر أخف حلاً شبيها في شعرها الطبيعي.

وتأتي المرأة تغطي شعرها أحياناً بطرحة تتبني في تشكيل هيئتها. وتزين جبهتها بإكليل تزينه ورديدات ملونة، أو عصباء مركبة تنزلق من خلفيتها. 44
彰 것은 من الحفز الملون المنظوم. وتميز غطاء رأس الملكة المصرية بتشكيله
هـ وحلقاته على هيئة أثاث العقود المقدسة التي ترخى جناحيها الطويلين على
جانبى رأس الملكة، من قبـل الحمـاءة الرمزية والذبـبة. وقد تجمع الملكة
شعرها تحت غطاء آخر أسطوان الشكل مرتفع يتناسب مع بها مظهرها وعلو
قدرها، فضلاً عن ارتداها تيجانا وأكاليل مميزة في مناسبات رسمية خاصة.

وعندما اختلطت الصرى بالإغريقيات والتأملات ثم الرومانيات
خلال العصور المتاخرة من تاريخ مصر القديم، استخدمت من تصنيفات
الشعر ما يكاد ينافس تصنيفات العصر الحاضر تنوعاً وحبكة، جمالاً ورقة.

***

وعلى أيّة حال، فتلك صور براقة مشروطة للنساء المنتظمات كـما ظهرن في
مجالات الحياة العامة والخاصة، أو كما ظهرن في النماثيل وصورن على جدران
المقابر واللوحات والنصف في مناظر الحياة الدنيا والحياة الأخرى. أما داخل
البيوت فالتقاوت بيئه متوّج. فتمت مكافحة ومنه المهمة في أمر زيتها.
ومنهن من يساعدنها رغدها وكثرة الجواري والخدم على الاحتفاظ بجمالها
وأنشطةها، كـما أن منهن من يرهل جسدها وتضمر حيويتها وتنقل أثاثها مع
تقدم العصر ومر الزمن.

أما ذات الثوب الواحد، ونه إنساء الطوائف العادية والفئات الكادحة
وما أكثر عددهن في الريف والأحياء الشعبية من المدن، فكانت هـن زيتتهن
البسيطة من الكحل والمساحيق الرخيرة، والضفائر الطبيعية والصناعية،
والحـلا الموارنة، وملابس الأعياد الزاهية، وقـلما استخدمن الوعـم
البسيط. وكانت هـن متاؤهن الملوفة من أثر الزواج المبكر وكرة العيال
وتعد مطالب البيت، مع رقة الحال، والاضطراب أحياناً إلى العمل لمساعدة
الزوج في الحقل والسوق، أو الكحـد في سبيل الكفاح في مصنع الغزل
والنسيج والخصر والسلال والحبال، والخدمة في بيوت السراة لأداء أعملاها
اليومية من طبخ وعجين وخبايز وغسل، وإعداد الجعة وتحضير الطور،
وهي أعمال كبيرةً ما صورتها مناظر المقابر وتماثيلها الصغيرة يودنتها فرادى وجماعات.
وظهرت في بعض هذه مناظر عاملات الحقول القروية عاباس نصفية متواضعة تكاد تشبه ملابس العمال الرجال، حيث يشاركون في جمع سيقان الكنس وتدنيتها، وذرية وغريلة الغلال.

* * *
ونية ظاهرة فنية واجتماعية معينة نود لفت النظر إليها وإلى نفهمراتنا لسبباتها (فيها أوردنا بشأنها في أحد بحوثنا السابقة عن الفن المصري القديم).

فكثيراً ما تظهر المصرات في مناظر وتماثيل المقابر والمعابد القديمة سافرات شباب لا تكاد تستر أدق تفاصيل الجسد الداخلية، نظراً لفرط حبيتها، أو فرط رقتها. وقد لا يصور من ثوب الأنثى في بعض المناظر الصغيرة أحياناً غير مجرد خلوك تحريضية عاببة تحديد يدأت ذنه وأكماه، وتتكارز بالكارد إلى وحوشة، كما قد يستعان بتدرج سطوح النقوش الفارز في مناظر الإناث أحياناً على إظهار مفاتن الارتفاع والانخفاض والانحناء والاستدارة في أجسامهن في حروة وصراحة.

وليس من المقبول بطبيعة الحال أن الجرائد المصريات كن كذلك في الحياة العملية، يظهرن عاريات أو كالعاريات، ويضحكون نقيس الحشمة المأخوذة عن المجتمع المصري القديم (أو الحديث) في معظم عصوره، لاسيما وأن بعض صورهن الأخرى قد أظهرت بنمبات ضافية كاسية فعلاً في عينة واضحة:

وإذا تجاوزنا عن الصور شبه العارية للعاملات الفقيرات بحكم الضرورة، والجوار والرافضات بحكم الوضع والمهنة، فإننا نعتقد أن تصوير نساء الرفاهية والوسطى رقيقة محبوبة، أو شبه لاصقة، وغير سائرة، قد تتأثر بثلاثة عوامل متداخلة. ومنها أن نسب الرسم والتحت اللي التزيم الفنان المصري القديم بما في تصوير الأنثى كانت تنطبق على الجسم.
العاري أساساً، وكان يعز عليه أن يضحي بجهوده في أدائها وإبرازها لو غطي عليها بثياب ثقيلة كاسية. ومن أجل هذا كان يصور جسم الأثنا بذوب المجرب الرقيق كان جسم عار، أو يصوره عارياً أولاً ثم يرسم الثوب عليه بألوان خفيفة. وغالباً ما كان يبرز معاني الجسم في كل حالة كما يتخيلها وما يلبق بصاحبها، وليس بالضرورة كما تبدو عليه في عالم الواقع، إلا في حالات استثنائية خاصة.

ولعله كان يعتبر أن تصوير الأثني هكذا على جدران مقتربتها أو مقربة زوجها، هو تذكية تصويرها في حياتها الأسرية الخاصة داخل بيتها حيث لا يحرج عليها في أن تتخفف من بعض ثيابها كلاً شاملاً. لأن تجسد معاني الجسم في حياته أمر يستهوي في كل عصر، ويرضيها كما يرصي زوجها (لنفسه) في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة. ولم تعودت العيون أخيراً على مثل هذا التصور لم تعد ترى فيه شيئاً ينافى الحشمة أو يجابي الذوق.

ومع ذلك، ومع شيء من التجاوز، فلا يتأس من الاستشهاد جزئياً ما يبدو به الآن أزياء السهرات للنساء في الحفلات الخاصة، وكيف تبدو أبعد ما تكون عن تمثيل أزيائهم الفعلي في الحياة اليومية، ولا يباح ارتداؤها إلا في مناسبات معينة لا تكاد تتعدى.

وعلى أية حال فلم يبلغ شغف الفنانين المصريين إظهار مواضع الفتنة في النساء حد الإسفاف. ولم يتجاوزه إلى كشف مواضع العناية للأثني إلا في القليل النادر وفيها تخصصاً. وإلا فلا أنسيتات ناسياً خلال فترة التحرر أو التحلل التي كانت تتطلب المجتمع من حين إلى آخر. وقد استشهدنا هذا بأربع لوحات راقصة صورت أقدمها راياتها مهتمات بلابس سائرة وحركات بطيئة رتيبة، وصورت أخرى راياتها بلاحس نصفية يرفع سيفها في رشاقة تشبه أوضاع راياتها البالية الحالية، بينما صورت ثالثتها جواورها ينتمي في دلال بلاحس نصفية هفوفاً شفافة تكشف عنها تحتها، وصورت الرابعة جواورها عاريات تماماً ترفع الواحدة منهن ساقها العارية حتى مستوى بطنها أو حتى تلامس بها كتف أختها.
زيادة وأزياء الشباب والرجال

يظهر أغلب المصريين القدماء في مناظر ومقاماتهم المزارع ومهامهم. الصدر والساقين أحياناً، ويرتدون نفقاً كتانية (أي نورة أو إزاراً أو فوطة)...

قد تكون قصيرة تتمد من تحت السرة إلى منتصف الفخذ فوق الركبة، أو تكون طويلة نوطاً تتمد من أسفل الخصر حتى ما فوق الفرقوبين. وتتنوع طرز وتفاصيل هذه النقية، من حيث سمك نسيجها، وعرض قماشها، وحبكها أو انسهاها، وعدد طياتها، وتفاصيل زخارفها، ونوعية أحزامها ومشابكها . . .، بما يوائم مناسبات أرتدائها، ومكانة أصحابها، وأدوار عصرها. وقد يرتدي الرجل نقيبياً، نقبة داخلية مهربة قصيرة ونقية خارجية طويلة متسعة...

ومرة أخرى لم يعبر هذا العري النصفي عن حقيقة أزياء الرجال المصريين في حياتهم العملية دائماً، وذلك على عكس ما خدع به كثير من المحدثين فيها يصورون أو يمثلونه حتى الآن عن رجال مصر القديمة.

والواقع أننا إذا عدنا حالات العري النصفي الاضطراري للفقراء والعملاء من الزارعين وأرباب الحرفي في حارة القيظ في صيف مصر الحار، وعندنا كذلك نواعيات الملابس الخاصة بطوارئ مهينة معبئة مثل الجنود والكهنة، والراقصين، والرياضيين، أني ما أن العري النصفي لرجال الطبقتين العليا والوسطى في مصر القديمة كان عري رمزياً أو عري مؤقتاً، في معظم أحواله. وقد استهدف بدوره عدة أعراض نوحاها في بحثنا سلف علينا من الفن المصري القديم. ومن هذه الأعراض رغبة إظهار كبار الشخصيات في لحظات ومناسبات مقدسة يتراءون فيها من غالية ثيابهم أثناء التعبد للأرواد في المعابد، أو أثناء التأهب للقتام على أعماة الآية في المقام، وهو غرض كأنه يستطيع ظهرهم حفاة كذلك على الرغم من تعدد أنواع النعال والصنادل التي كانوا يتعلمونها في حياتهم العملية.

٤٨
ومع شيء من التجوز لا يتأسس من مقارنة كل من هذه الوضعين الاستثنائيين بما لا زال بعض الأفراد من الأفارقة والأسيويين، بل والاستقلاب البريطانيين أيضاً، يستحكون أن يظهروا به من ملامس تقليدية قديمة (مثل الجلود المخططة) خلال مناسباتهم القومية. وكذلك ما لا زال بعض العرب يستحكون ارتداءه من الملابس السيبرية (مثل الفوطة) في حياتهم المنزلية الخاصة، وهي ملابس تختلف قليلاً أو كثيراً عن ملابسهم في الحياة العامة، وإن لم تقل كثيراً عنها أهمية واثقة من وجهة نظر أصحابها على أقل تقدير.

ويذكر هذه الآراء في تفسير العري النصفي للمرجاء في مصر القديمة وعيبة الرمزية عليه أكثر من الواقعية، وجود مراعاة وتفاوت مصرية أخرى كثيرة النزل الفنانون فيها يصورون واقع الحال في الثواب الفعلية للشيبي والرجال والشيخوخ. فقد أظهروا بعضهم بصرف النظر صوب ذات أكمام نصفية، وملابس طويلة تُلبس من تحت البصر مباشرة، وأخرى كاسية تُلبس من الكتفين وفتحة الرقبة حتى قرب القدمين. وقد تكون هذه تلك ضيقة أو فضفاضة، أو سميكة. وقد يتلف رداء الشخص من ثوب أو ثوبين، أو ثوبين من ثوب قميص. وقد يكتسي الرجل بوشاح أو طابع أو عباءة، غالباً ما تُركض هذه تلك بختارف وأشرطة ويلات وثوبين تناسب مع السن والمكانة، وروح العصر، والقدرة المادية، نوعية المناسبات، وكانت زينة الأثاثاء والمترفين كثيرة، ومن أحسنها القلقائد العريضة.

(م ٤- الأسرة)
والصدريات ذات الزخارف والصفوف المتعددة، وحل المعاصم والدمالج، وآدوات الأناقة ورموز الشرف من العصى القصيرة والطويلة، والمذابح، والمناديل المطرية، وما إليها.

وستحب أغلب المصريين تقصير شعر الرأس مراعاة للنظافة وللتمييز عن هيئات البدو والرعاة والصيادين من الطبقات الدنيا، واردت بعضهم الفلسفة الضيقة في الظروف العادية، والشعر المستعارة القصيرة والطويلة في المحال الخاصة والمناسبات الرسمية. ولم يكتنوا لديهم عن تنوع الشعر المستعارة لنسائهم.

وإلى جانب ما يلي الاستشهاد به من الدعوة إلى نظافة البدن ظاهرة وباطنة، تعدت أصناف الطيب والدهون والزبوب العطرة للرجال بما لا يقل كثيراً عن تعدد أصنافها لدى النساء، ولم يقتصر تكحيل العيون على النساء وحدهن وإما أخذ به بعض الرجال أيضاً، ولكن بصورة مخفية. ويدعون أنهم كانوا يجدون فيه وقاية للعين من أذى الذباب وبعض أنواع الرماد فضلاً عن غرض التجميل الخفيف.

وكان أغلب المصريين حليق الشوارب واللحي، إلا في حالات قليلة استحب بعضهم فيها تربة الشارب الدقيق الذي يمت باتساع حافة الشفة العليا، ويزيد سماكة في وسطه عنه في طرفه، وذلك بما يشهد بقدم الابتداع المصري حتى في أمور الأناقة (وهم يكاد يشبه أمثاله في العصر الحديث) وظهرت أولى تمازجها المصرية منذ القرن الثلاثين قبل الميلاد.

وحلت اللحي المستعارة للرجال محل اللحي الطبيعية، وتعتبر حياتها وأطوالها تعدد مناسباتها الرسمية والدنيا. إلا في حالات قليلة بقي فيها ظل للشعر الطبيعي الخفيف على الذقن والرموش والعوارض، واللحيات الصغيرة المدببة أو شبه المربعة أحيانا لبعض الشخصيات.

وكان من الطبيعي أن تمتاز زينة الملوك عن رعاياهم بتعليماتهم وصوامليهم وأكاليلهم متعددة الأشكال والألوان والرموز لاسيما خلال المناسبات الرسمية.
واشتهر من أغطية الرأس الملكية لباس الرأس المخطط (أو المنديل ذو الخيوط الأفقية) الذي اقتصر ارتداؤه على الملوك دون غيرهم. وهذه حقيقة تختلف ما يلتجأ إليه أغلب المحدثين أيضاً من تعميم ارتدائه على المصريين القدماء حتى العمال والجنود والأتباع. وهو خطأ شائع كثيراً ما نتهانى إلى وجب تجنبه في التمثيلات والمواكب التاريخية الرمزية، ولكن دون طائل.

واعترافاً بواقع الحال، سوف يرد في مناسبة تالية كيف صورت بعض المخطوطات المصرية القديمة ما أندفع إليه المراهقون من شباب عصورها المتأخرة إلى شدة التأنق والرفاهة في الملابس، وارتداء الشعور المستعارة التي قد تصل جدائلها الطويلة إلى قرب العرقيين.

وأخيراً ولغير سبب واضح افتقد المجتمع المصري منذ أمد طويل جانباً كبيراً لما كان للمصريين القدماء من كلف خاص بالزهور وافتيات برونقها، فكانوا يزينون بها شعورهم أحياناً، وتهادون بها، ويخرجون بها في المواكب والأعياد، بل ويزينون بها موائد الطعام وقرابين الموتى والمعبدات.

* * *

51
الفصل الرابع
القرآن وعقود الزواج وتبعات الطلاق

كما يحدث عادةً، كان التزويج بين الأقارب والمترفدين في المجتمع المصري القديم أمرًا مستحبًا وميسراً، ضمنًا للمعرفة بالأصل وتقارب المستويات الاجتماعية، وتزكية لصلات الرحم، وإبقاء على ممتلكات الأسرة في حوزة فروعها بالنسبة لبعض الحالات على أقل تقدير وذلك بغض النظر ما يمكن أن يتربت على التزويج الداخلي أحياناً من ضعف النسل وتضارع العيوب.

وإذا لم تسكن العروس من الأقارب أو المعترف اشتراط الأباؤن فيما ذكره الحكيم بباح حوتب أن تكون «معروفة بين أهل بلدها» وأن تتوافر فيها خصائصان أو شرطان، ولو أنه لم يحدد للأسف ما هو هذا الشرطان أو عادات الأصبغ، وكان الحكم عن شاشهين أكثر صراحة، فيها مريناً، في مثل قوله ولدى الله أن تتخذ فترة من أهل الطمع زوجة حتى لا تثور أبناءك تربية فاسدة، ثم في قوله لأب البنات: تخبر يا بنتك زوجاً عاقلاً ولا تلتمس لها زوجاً ثرياً. ولأب ما قال كذلك: قد تزوج ابنتك لصائغ ولن تزوج ابنتك لا بنته.»
ولم تخصص المصادر المصرية الباقية حداً أدني لسن الزواج ، فيما خلا
حالات فردية متأخرة الزمن نصت عرضاً على سن العشرين للعرس ، وسن
الرابعة عشرة والثانية عشرة والنصف للعرس . وكان الزواج المبكر مستحبًا
في أغلب الحالات طالما توافرت له أركانه الأساسية .
وعلى الرغم لما هو معروف عن تداخل المراسم الدينية في معظم وجه
الحياة المصرية القديمة ، إلا أنه لم متضمن في وثائق العصور الفرعونية المبكرة ما
ينص صراحة على طقوس دينية تصحب إجراءات الزواج في العيد أو في
المنزل . ولم يعثر على مناظر واضحة تصور حلال الزفاف وعاداتها . ولكن
المحت إلى أنها تضع قصائد غزلية وأساطير وعقود قليلة تبدأ بالقرن الخامس عشر
ق . م . ويفهم منها أن الأم كانت تُحْلَب ولدها أحياناً وتُحْلَب منها ابنتها
أحياناً (وهو ما سبق ذكره أعلاه) .

ولكن غالباً ما كان الأب نفسه هو الذي يتلقي طلب العريس للاقتران
بابته . وقد يتمتع عليه أولاً بتحفظات وشروط كا يحدث حتى الآن ، كان يرد
عليه بأن وقت زواجه لم يحن بعد ، أو يطلب منه أن يعمل على شغل وظيفة
مناسبة قبل أن يزفها إليه ، كا اشتراك كاهن من القرن السابع ق. م. يدعى
نادي إ площадة على عرس ابنته . ولأجل أن تنزلها بعد زواجه عن داره وهو يتمن
كلل أن أجزب حفلها أفضل من حفل زواج كل البنات . ويرصد أن هذا الأب
كان معه في تخطفه ، وأنه أراد لسته زواج الكادية ، وكانت هي صغيرة لم تُنَد
الثالثة عشرة ربعًا بحيث بكت بحرم فراق أبيها ورجحة أن يصحبها معه
حيث تكون سعدًا حالاً مع إخونها .

ورويت بعض القصص أن والد العروس كان يبكيها بما يتناسب مع
ثرائها ، أو يوصي لها بعض أملاكه بمناسبة زواجه كا فعل الأب السابق . وأن
العروس كانت تلتقي هدايا ذويها ومعارفها ، وتُرِف إلى دار عريسيها حين المساء
في احتفال وما بطبعه الحال .
وجدير بالذكر أنه على النقيض بما جرت عليه تنظيمات بعض المجتمعات القديمة الأخرى، لم تتمسك مصر القديمة كثيراً بالقوانين الطبقية والعرقية الحادة في شؤون الزواج والمعاملات. وإذنما القوانين بين الأسر في المجتمع على أسس اعتبارية من خلفية المجتمعات الثقافية والإمكانيات المادية، أكثر مما سواها. وعلى الرغم كذلك من حرص الآسر الفرعونية على تغيير دمائها الملكية، إلا أنها لم تمنع أمراءها بل وأميراتهما من أن يصبحوا إلى ما عداها من الأسر المناسبة لهم في المجتمع.

ويبلغ هذا السامح الاجتماعي ذروته مبدأً منذ أوائل القرن السادس والعشرين ق.م. حينما سمح الملك شيشونيفاقد أحد ملوك الأسرة الرابعة بزواج ابنه الكبرى من شاب يدعى شيبنيت، كان ملوك أسرة كبيرة صعيدية ورئي في قصره وقصر أبيه من قبله. وكانت هي المرة الأولى التي يزوج ملك فيها ابنه من أحد أبناء رعيته، ليس في مصر وحدها، بل وفي العالم القديم كله، ناهيك بكونه ابنه الكبرى، وكونه هو مقدسًا لدى شعبه. وأتاحت هذه السبعة المجال لزيجات أخرى مماثلة تالية.

ومر بما كيف أقدم الملك بيبى الأول أحد ملوك الأسرة السادسة في فترة من القرن الرابع والعشرين ق.م. على خطوة ساحة أخرى جريئة، حين أصرِّه بتشجيعه إلى أول الصعيد وحاكم إقليم جرجا في عهده، فتزوج ابنه وأنجب منها ولد مرنع، وربما زوج أخرى أيضًا (بعد وفاتها؟) وأنجب منها ولداً آخر وللعرش بعد أن يكون ابناً باسم بيبى (التاني). وكانت هي المرة الأولى كذلك التي رفع فيها ملك مصر إحدى زوجاته من غير الأدراسة إلى مرتبة الزوجة الرئيسية وأعترف بولدها وليك له. وتكرر إجراء مماثل لهذا بعد عدة قرون حينها تزوج الملك أمنحوتب الثالث بفتاة من أسرة كبيرة من رعاياه، وهي تى التي أسرت له بدلًا منها وذكراها وشخصيتها الفريدة. ثم أعلن وله من وليك له. ولعل من إعجازها أنه كان يأمر بتجنير اسمها في سياق الإعلام بمن تزوجه بعدها من أميرات بصرى وأجنبيات، كأنما

57
ليوحي بأن زواجه بين هو من قبل الزواج السياسي أساساً. (وقد اخضنا أمثال هذه الظواهر الحسنة في التقارب بين الملوك المجريين القدامى وبين كبار رعاياهم ضمن شواهد بطريركنا الخاصة بأن مكانة القراعنة لم تصل إلى حد الألوهية كما ظن أغلب المؤرخين الحديثين، وإنما وقفت في معظم حالاتها عند حد القداسة. وثمة فارق بطبيعية الحال بين الألوهية وبين القداسة، أو بين التأليف وبين التقديس).

وكأن طبيعياً مع هذا أن يشع النساهم الاجتماعي في الطبقات الأخرى من الشعب إذا وجد ما يدعو إليه، بحيث قد تتزوج الفتاة بأحد أتباع ولد أمرها إذا رأته ورقها، أو يتزوج الفتى ابنة خادمة أسرته إذا نخبها، بمواقف الكبار. وفي إحدى مرات هذا التسامح أعتق حلا فرعي بقصر الملك خوئيس الثالث (في القرن 15 ق. م. شابا رقياً عنه وزوجته بنك خوئيس الثالث، وأشركها مع زوجته وأخته (في العشيرة أو في المرأة) حتى يتجنب عريشها الحاجة عند اقترانها بها. وقد يقدر هذا ما سبق ذكره عن سيدة عاقب تنت أطفال جارتها الثلاث من زوجها وزوجت كبراه من شقيقها الأصغر. ولا يمنع هذا المثل أو ذاك من وجود حالات أخرى عكسية مشددة بطبيعية الحال.

وندر زواج المصريين بغير المصريين حتى في فترات الاحتلال الأجنبي القديم. وعلى الرغم من كثرة زواج فراعنة الدولة الحديثة بحلفاء (خلال القرن 16-12 ق. م.) من أميرات الأسر الحاكمة في الشام والعراق وأسيا الصغرى وكره وتغريدها لروابط الأدب phẩmية معها، ظلوا مستمرين من شحتهما بسمو الجنس المصري وعزوفهم عن تزويج بناتهم بملوكها ومرابطها، معطلاً بحكم ما يعلوه الفرعون أمتحانات الثالث لملك بلا لبعض تحسين، في القرن 14 ق. م.) من أن له ما يسبق أن أوقفت أمتة مصرية إلى أي شخص أجنبي. ولم يتزال الملوك المصريون عن مثل هذه الفكرة إلا في فترات ضعفهم السياسي في أواخر العصور الفرعونية.

**

58
عقود الزواج

قل ما تبقى حتى الآن من عقود الزواج المصرية القديمة. واقتصر المعرف منها على ما دون في عصور متأخرة الزمن نسبياً (منذ حوالي القرن العشرين ق.م. وما تلاه). ويفيد منها أن ولى أمر العروس كان ينوب عنها في إجراء عقد القران إلى ما قبل القرن السابع ق.م. ثم أبح للعروس وللشبي بخصوص أن تحضر العقد بنفسها. وهو ما يعني الاعتراف باكتمال شخصيتها القانونية، وأن الزواج يعتبر من شأن طرفيه الفعليين أساساً، وأن موافقتهما المتبادلة هي العنصر الرئيسي فيه.

وعلى إجراءات عقد القران كالعادة بصيغ الإجابة والقبول، ويقول

العريس لعروسته اتخذت زوجة، وقد تقول هي في حالات خاصة أو تخذا زوجاً. وتم التنص على قيمة الصداق من الأوراق الفضية (التي قامت في حينها مقام العملية) والأشياء العينية، من قبل العريس، والتزامه بإعدام العروس في حضوره وغيابه، والإقرار بحق أبنائه منها في راثته، ثم تقرر موجب مناسب أو تعويض يدفعه إليها إذا انفصل عنها (إلا لدزب عظيم أثنه أو إذا طلب الطلاق بنفسها)، مع حدوث التراضي على ذلك كله بشهادة التشهد من الأقارب والجبرة والأصدقاء قل عددهم أو كثير. وهذا تكتمل أركان العقد.

وقد ورد من شهود عقد متواضع في مدينة طيبة ثلاثة. رئيس اسطبل، وكاتب، وكاهن، بينما زاد عددهم في عقد آخر إلى ستة عشر. وقد يبهر الموقف الرسمي العقد في نهاية بتوقيعه.

وفي بعض وثائق العصور المتأخرة عن أن تدوين العقد، أو تسجيله

معنى أصح وإقرار الالتزامات المالية بين الزوجين لم يكن من الحتم إضافته قبل الزواج. وإنما قد يتم بعد حدوثه. وذلك بما يعني أن خطوات الطلب والقبول ثم وقوع التراضي بين الزوجين أو من يمثلهما مشاركة كانت خطوات كافية في حد ذاتها لإعلان شرعية القران كما سلف القول، من وجهة النظر الاجتماعية.
وتشابه صيغ العقود في أركانها الرئيسية، ولكنها لم تكن تلتزم دائمًا
بصيغ تابعة فيما يختص بتفاصيلها التي قد تتفاوت فيها فيما إلى حد ما باختلاف
العصور. وتتفاوت ثقافة الكتبة والمستوى الاجتماعي للعروسين.
ولأمر ما ورد في بعض عقود العصور المتأخرة في طبيبة ما ينتم عن فترة
ملاءمة مدتها سنة. بل واحتمال مرور سبع سنوات أحيانًا تستمر بعددها
الالتزامات المالية لكل من الطرفين قبل الآخر أو تعديل برضيماها.
وعلاوةً ما يجري الزوج زوجه بما يسمى "شين سحمة" أي "مهر الزوجه".
أو "هبة البكر" صداقاً يتناسب مع مستوىها وعصرها، سواء كان معوجلاً
تنسلمه قبل الدخول بها، أو يبقى موغلًا في ذمة الزوج لتشتوف فيه حين
مبرسة، أو إذا وقع الطلاق بإرادة الزوج، مضافًا إلى تعويض مسمى بينهما قد
تراوح قيمته بين نصف قيمة المهر وعشرة أثماناً.
وتدخل الزوجة بيت الزوجة بمنقولات مناسبة (تسمى "نكتون إرمة").
أو "نكتون سحمة" يتمثل أمتعتها أو جهازها الذي تحتفظ به ملكيتها الخاصة ويحق لها
استردادها إذا ما طلقها زوجها أو مات.
وقد تدور هذه الأمتعة والمنقولات قائمة بصر أهل العروس على أن يوقع
العريس عليها بدخولها إلى بيتها وملكية زوجته لها، ويقيم محورها جلالة
وفصيالاً بما تضمنه من ثياب وباروكات الشعر والأساور والخواتم والخلاخيل
والعلب المعدنية، إلى جانب صندوق الملابس والمرأة والمزهريات والأواني
والملحق (المون) والنحاس... إلخ، كما يحدث في القرى والأحياء الشعبية
حتى الآن.
وزادت بعض عقود الزوجة البحرى في العقود المتأخرة فقرنت هذا بالمال
بقوم مقام الدوحة التي يخصصها أهل العروس لها باسم "حزن إرمة" أي مال
للزوج أو فضة لعمل زوجة، ولا تزال بعض المجتمعات الأجنبية المعاصرة
تأخذ بها، وما تسهم به عمليًا أو نظرًا في مصلحة بيت الزوجية. وربما كان
هذا أصلًا ما وصف اصطلاحًا في وثائق هذه العقود المتأخرة والعصر البطلمي
بخاصة باسم "سخ نسخن" أي "محرز الإعياشة" أو "عقد الإعياشة". وقد
تعدّدت الآراء في تفسير مدلوله. ومن النظريات الأخيرة في أنه يقوم على أساس أن الزواج بحالة من دم منفصلة كانت تعهد أحيانًا إلى قريبتها بحالة خاصة أو مقتنيات شخصية ليوظفها مصلحة التكافل المشترك بينهما، على أن يضمن لها دخلاً عينياً أو معدنياً مجزياً من ريعها غالبًا ما يساوي الثلث وقد يزيد إلى النصف. فيؤدي لها على سبيل المثال كحالة أدنى مكيالًا معينًا من الغلال كل يوم، ومكيالًا من الزيت في كل شهر، وراتبة شهريًا لتفصاتها الخاصة، ثم راتباً سنويًا كبيرًا لتكاليف زيتها غير العادية. وقد يضيف ما يؤكد به لزوجه أنه يعلم جيدًا أن نفقات زينة العام تختلف راتبها الشهري المعلوم. وهو ما يتفق مع ما أسفله عن شغف المصريات المتقدرات بملابسهن وحليهن، وصنوف الدهون والعطور، والمرايا والأمشاط والمكيال، والمحار، فضلاً على الشعر المستعار حين الخروج وحضور المحافل، وأخيرًا يقسم الزوج بأساء آلهته وملك عصره على التزامه بعهده. بل وقد يتعهد بوضع أملاكه الحاضرة والمستقبلة ضمنًا للفوائدهما، ويشهد على ذلك نفر من الشهود قد يتضمنون واحداً أو أكثر من أهله ليكون كفيلاً له وضمانًا لأداء التزاماته. وكان للزوجة أن تسترد رأس مالها حين الاستعاضة النهائي والطلاق.

***

ومن جانب آخر قد يخصص الزوج لزوجته جزءًا من أملاكه العقارية على سبيل الهبة في حياته، ليضمن انتقاله إليها بعد وفاته، بناء على إعازه لها، إن لم يكن استجابة لشديد إلحاحها عليه. وهكذا كتب إدوارد كير بعهده الأسرة السادسة يقول "إن الصبيعة التي وهبتها لزوجتي الحبيبة دسناً تعتبر ملكًا خاصًاً لها، وذلك لفرط حبي لها". بينما كتب هو نصًا يحتمل منه أنها اعتبرت هذه الهبة أثناه متوخر صداقا وتزعدت من يغتصبها منها بإدارة الدعوى ضد لدى الإله العظيم.

وهكذا أيضًا نقل واحده كهنة معبد سيد في فترة من عصر الأسرة الثانية عشرة إلى زوجته شفتى المعروفة باسم تي أو تا ممتلكات ريفية ومدنية سبق أن تنازل له عنها أخوه عنخ رن، لتكون تحت مطلق تصرفها وأن تعيد
تورثها لن شمس من الأبناء الذين تنجبهم منه. وخصوص بالذكر من أملاكه الدار التي بناها أخوه من أجله لكي تقيم فيها ويتمنى على أي إنسان أن يتعرض لها بشنها ليخرجها منها. وساق التحذير نفسه بالنسبة للمقربة التي خصصها لنفسه وزوجاته. وربما كان حق الزوجة فيها حق انتفاع دائم أكثر منه حق تلك خالص.

وقد يذهب الأمر بالزوجه (العجوز أو العقيم) الولدة بحب زوجته الشابة أن يعلن بتبين لها صبريا بطبيعة الحال، ليؤم انتخاب أملاكه إليها بعد وفاته باعتبارها وريثته الرئيسية.

وكما أن غبض بعض الأزواج على زوجاتهم ثورات يعتد بها، أتاح اقتران بعض الشبان والرجال بالأمراض والطب البالغة وولادة الأقلام فين واللحظة كثيرة لببوس عليها المحيط في عاصمة الدولة وفي حكم أقليهمها. وعندما زادت محابته هؤلاء الأموال من الأزواج في أواخر الدولة القديمة قال الحكيم إسحور: «تأمل، إن من تزوج نبية جماه أبوها، ومن ليخده مثلها قد يجد من يقتله». 

وجاز للزوجه المصرية أن تشك زوجها إذا آذاها أديى مبرحاً، أو يشكو علها أمرها نياية عنها. وإذا ما استرضها الزوج بعد ذلك قد يقسم على النزاهه بحسن معاملتها وأنه إذا عاد الإصرار بها استحق أن يجلد كذا جلداً (وهو الأحزام شكل لم يكن يطبق فعلاً)، وأن يحرم من كل ما يحصل عليه معها من إيراد مشترك.

***

لم تتناول الأقواس المصرية القديمة تصرفات الحموان وزوجات الأب صراحة. ولكن تختلف قوائم مقتطعة شهدت بتسامح الأزواج والأولاد أكثر مما شهدت بتسامح الحموان وزوجات الأب. فقد سمى بعض الأزواج الطيبين بتصويرهم وحمايتهم في ذات مطالبهم إرضاء لزوجاتهم. وتقبل الفرعون تقويم الثاني زوج حاتشريت أن تلتقيه حامته بلقب دام الملك» أي أمه أو «المملكة الوالدة»، على الرغم من أنها كانت ضمة لأمه. وما رافاه الأجل.
ورث العرش عنه ولده نحوتيس الثالث، وكان ابن ضرة لأم الرئيسية الملكة حاتشبسوت، ولم تبدأ هذه الأخيرة أن تردد تسامح أبيه بالحسن، بل رأعتها واستغلت صغر سنها، وفرضت نفسها وصية عليها وشركيه في عرش أبيه سنين، وزوجته ابنتها، ثم أقصيت عن الحكم الفعلي وأنفردت بالعرش دونه ثلاثة عشر عامًا. ولم تقتضي أجنها أن يلزم العرش خاليًا إلى غريبًا بعد أن شبه عن طوله وكثر أنصارها، لم يذكر حماته في حليته بسوء، واستمر يخص ابنتها مركز الصدارة في قصره، ولكنها جازى حاتشبسوت عن عنتها بصورة أخرى، فأوجب إلى أتباعها، أو ارضى من أتباعها، أن يطمسوا أشياءها وصورها ويجنها من كل أثرها المصورة والمكتوبة، وأن ينسوا تماثلها أبدًا وفروها، عساها بسها وينسي الناس ذكرها.

ورث قصة عرفت باسم قصة الأمير المورود أن أمرها الشاه استمال إليه مساعدة أمير منطقة حاريس على حدود الشام والعراق بأن قال لهم إنه لم يفارق وطنه سائحاً في الأرض إلا بعد أن لاقى عتنا من تصرفات زوجة أبيه التي اقترن بها بعد وفاة أمها.

ورث قصة من العصور المتاخرة أن أثنا من عيلة القوم اشترطت على أمل تقدم لها أن يحرم أولاده السابقين من ميراثه.

وأحاطت بالفرعون آخواته المشهورة بدعوة الوحدانية الدينية سيديتان قويتا العباس، أم تي، وزوجته نفريتي، وكانت تدخن ذات يبدأ وانفوذ منذ حياة أبيه كأي سلف القول عليها. وكانت تتردد على قصر ولدها في العمرة من حين لآخر، فيكرم وفادتها، ويؤد ها المحاليف هي وزوجته نفريتي. ويدعو أن رأى أن معالجته ولدتها في دعوة التوحيد جتر عليه خصومات غنيمة وأثبت عليه كبار كهنة مدينة طيبة ذرى التفاوت القديم. فأخذت تدعو إلى أن يعادهم ويتخل عبود تشبه في دعوته، ولولا أن نفريتي لم تكن دون حماتها تباسا و السعودية، فخاضعتها في ولدها، واستمرت تفرضه على خلاف ما دعته إليه، والتدته، فشلت نفسه وتشتت خده بين طاعة أمه، والإخلاص لدعوته، وإرضاء زوجته.
وفي مقابل هذه الحالات الفردية، غدت عن صور أخرى من التحيز للأهل والأقارب من جانب الرجل، عبارات مرسالة فردية أخرى ساقها عنخ شا شنقي وقال فيها: «لا تفتح قلبك لزوجتك أو جاريةك، وافتح لأمك في انتهى الرففة». وقال: «لا تدع ولدك يتزوج امرأة من قرية أخرى وإذا انزعوه منك».

تبعات الطلاق:

يحتل من عقود فردية أن طلب الطلاق في المجتمع المصري القديم كان حقًا مكفولًا للزوجين، وإن ظل بيد الزوج في الأعم الأغلب. وقد تشترط الزوجة أن يتعهد الزوج على نفسه في عقد الزواج بأن يردو عليها ضعف بائئتها إذا اقترن عليها بزوجة أخرى. وأن يحرر لها سندًا بابتعاده عن العقار (؟) لصالحها. وفي الوقت ذاته قد يحرر الزوجة بعد إجراء العقد سندًا ببعضها أنها أصبحت زوجة لقربها، وأنها إذا طلبت الانفصال عنه ردت له نصف قيمة الصداق المدفع إليها وتنازلت عن حقها في عائد ألماكه.

وإذا أوقع الزوج الطلاق بإرادته أدى لطلبه المؤجل المتصور عليه في عقد القرآن أو التعريض الذي قد تتجاوز قيمته في بعض الحالات قيمة الصداق نفسه. وتستوفي المطالبة معه ما يكون قد خالفها من حرف مهرها في ذمة زوجها. كا تسترد مقتنياتها الشخصية كاملة أو ما يعرضها عنها. وقد يضاف إلى هذا نحو ثلث ممتلكات الزوج العقارية لصالح أبنائه القصر وتربيتهم. وقد يكتفي الرجل بالتطبيق الشفهي كأن يقول لزوجته: «فقد هجرت كزوجة، ولك أن تتخذي لنفسك زواجًا آخر». أو يجرر لها وثيقة طلاق تؤكد خلوها من موانع الزواج.

وفي عصور حكم البطالة والروماني تأمّلت عقود الزواج المحررة باللغة الإغريقية في مصر بعض خصائص العقود القديمة. ومن هذه الخصائص غالب الطابع المدنى عليها. وحق العروس في تمثيل نفسها عند عقد القران، وحقها
في طلب الطلاق وتقييد حق الزوج في التصرف في جهاز عرس زوجته وبائنتها ورأس مال الإعاسة، والتعهد أمامها بحقها في استردادها بضمان أملاكه أو ضمان أحد أقربائه – وعلى الجملة تعريض المطلقة بإرادة زوجها بما نص عليه العقد واتفق عليه الطرفان سلفاً. وقد بلغ في بعض حالاته الاستثنائية مثل الصداقة، أو خمسة أمثاله، أو سبعة أمثاله. واستمرت أغلب هذه التقاليد والأعراف ذات الصبغة المدنية والمالية مرجعة بصورة متقطعة خلال أوائل العصور المسيحية في مصر.

***

(٦٥ - الأسرة)
الفصل الخامس
الحمل والولادة ، والرضاعة والعلاج

إشباعاً لغزيرة الأثرى وعاطفة الأمومة الطبيعية لدى الزوجات ، واستجاباً لما يلي الاستشهاد به من شدة حرص الأزواج المسلمون على الإنجاب لسعادة الدنيا والآخرة ، ألّفت نساء مصر القديمة في مغالبة العقم إذ حاولوا كبيرة واستعن في سبيل نجاح الحمل بعلم الأطباء ، وتعاون الإقامة والسحرة كما توصلن إليه بفتي الصعوبات ، ويركات الأولياء وصالح الموت .

وختلف من شواهد اهتمام الطب المصري للإناث ، مخطوط خصص

لتشخيص أمراض النساء ، ومخطوطون آخران تضمنا ثمان وسائل للتمييز بين
الأثرى المخصبة والأثرى العقيم . وشأنًا المصادفات أن تنصرف هذه الوسائل
الباقية بين سماحة واضحة من وجهة النظر الحديثة على أقل تقدير . فأوصت
إحدى بأن تخلط الزوجة قطعة شمعة بلبن والدة ولدت طفلاً ذكراً ، ثم تأكل
الخليط ، فإن قامته استبشرت بقرب حملها ، وإن استقر في جوفها وشعرت
بانتفاخ بطنها أيقن من عقماها .

69
والغريب أنه على الرغم من وضوح السذاحة في هذه الوصفة، تردد
صداءها وصدى أمثالاً طوال العصور القديمة، في مصر وغيرها، بحيث
أوصى الحكيم الإغريقي أفلاط (هيبوكراتيس) بأن تخلط الأثنا تينا بلبن
والدة ورضع مولوداً ذكراً، ثم تأكله. فإن قامته استبشرت بقرب حملها،
وان احتفظت به في جوفها أيقنت باستحالة حملها.

وأوصت وصفة مصرية أخرى متأخرة، بأن تبول الأثنا التي تشعر
بأعراض الحمل على نبات معين، فإن أزهر صدق حملها، وإن ذبل كان حملها
كاذباً.

وتردد صدى هذه الوصفة هي الأخرى، في أغلب العصور القديمة، كما
أخذت العصور الوسطى العربية بمثلها، بحيث أوصى طبيب أنجليز من
القرن التاسع تلميذه بوصفة لمعرفة المخضوب من العقيم. رجلاً كان أو
امرأة، وقال له: ضع خمس فميات في حفرة صغيرة. وسمع جيات فول في
حفرة أخرى. واجمل من استشارك يبول في الحفرتين ولاحظ الحرب بعد
اسبوع، فإن نبت كان صاحبها خصباً، وإن ضمت كان عقيناً.

وتحالف من أدوات الرقية والسحر المصرية صحن كبير نقش باطنه وما
حوله حافته بصور الضفادة كثيرة النسل، وكان الراقي يملؤه فيها يبدو سائل
ما، ثم يثلو عليه رقاه ويسقيه لزائراته من النساء (وكان مثله كثيباً بطبيعة
الحالت).

واستعانت النساء ببامائم خاصة لنجاح الحمل. كان بعضها يشكل على
هيئة إناث الحيوانات والزواحف التي تتميز بكثرة الإنجاب مثل الضفادة
والقطط. ويشكل بعضها على هيئة إناث الحيوانات التي تتصف بضخامة البطن
والثديين مثل أفراس النهر.

والتسم نفر من الأزواج والزوجات عون الأولئك وكرام المولى على تحقيق
الخليف. ومن هذا القبيل أن وضع مصرية مثلها صغيراً في قبر أبيها كتب
عليه «أرجو أن تهب ابنتك سح طفلاً». وأسقط شاب رسالة في قبر أبيه توصل
إلي فيها أن يساعد أمرأته على نجاح الحمل. وتصادف أن نجح الدعاء، ووضعت الزوجة طفلاً جميلاً ولكنه سقيم، فأسفر الشاب رسالة أخرى لأبيه قال له فيها: "أرجو طفلاً ذكرًا ثانياً سليماً...". ومن وجه آخر قال أحد الأمثال العامة في مصر القديمة "من استريح من نكاح زوجته لن يولد له غلام". وهو ما يشبه المثل العامي الحالي "اللي ينكسم من بنت عمه ما يجيش منها غلام".

ولم يكن مبعث شغف الآباء والأمهات المصريين بالأطفال هو مجرد الرغبة في إشباع غرائز الأبوة والأمومة وحدها، وإنما كانت وراءه كذلك دوافع اجتماعية ودينية أخرى متعددة.

فقد نشأ المجتمع المصريي القديم نشأة زراعية في جوهره كما هو معروف. والكينان الاقتصادي للمجتمعات الزراعية يتأثر عادة بوفرة الأيدي العاملة أو قلتها على الأرض. وما يصدق من ذلك على اقتصادات المجتمع الكبير يصدق كذلك على دخل كل أسرة زراعية فيه، سواء عملت في أرضها أم استأجرت للعمل في أرض غيرها. فكلاً يتأثر أفرادها كلما تربوا أن نتاج النباتات الفضص لزيادة دخلها.

وأظهرت ظروف البيئة المصرية أهلها على طلب العمال وجبت فقراءهم خشية العوز المدقع أو الإملاك التام. ومن وسائلها التي أجراها الرحمن فيها ولايزال، تعاقب وأنظام فيضانات النيل ووفرتها في معظم الأحوال، ويسير الاتفاق بها وسهولة تصريفها إلى حد فعال، وخصوبة النهر وتجددها شبه الدائم، وسخاها بالنخيل في ضمان وفرة النباتات والزروعات والحاصلات ورخص أسعارها إلا في سنوات القحط والغلاء والتضخم. وأوجي ذلك كله إلى عامة الناس بشيء من الطمأنينة إلى معيشة لأمارة العوائق إلى حد مقبول، كما هون على فقراءهم مغبة محمل نفقات الأسرة وتكاليف العمال.

وأتستعت هذه الظواهر نظر المؤرخ ديودور الصقلي حين زار مصر في القرن الأول، فكتب يقول "بري (عوام) المصريين أولادهم في بسر واقتصاد بالغين، فيطعنون عصيدة يطبخونها من مواد رفيعة وافرة"، ومن.

71
سيقان البريد بعد شرقها على النار، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها
نيئة ومطبوخة ومشوية».

وأطمأن غالبية المصريين إلى كرم معبودتهم كا اطمأنوا على جود بيتهم،
وسرت بينهم روح من الإيمان بإله خالق حيهم، وصفه أبدوهم بأنه يدير قدرة
الناس للنساء، ويخلق من النطفة بشراً، ويجب الحيوية للجنين في بطن أمهم،
ويتعهد في الرحم، وإذا ولد أنطقه وغمه. كا وصفوه بأنه إله يعين بأفراح
الحيوان كا يعين بجينة البشر. وهو من يركل إلى الأمر كله.

وسبح بعضهم هذا الحقل بقوله:
«خلقت العشب لتحلى به البشر، وخلق شجر الحياة للبشر،
تُهب الحياة أسماك الماء، والطير في كبد السماء،
ترسل الأنفس للفرح في الفناء وتحكي الدورة في التربة.
قدرت ما يجي النمل والزواحف والخنازير،
ورزقت الجزائر في الجحور، وعريت الطرير على أغصان الشجر».

وتحدث نص قديم آخر عن فضل الإله الذي يحفظ الجنين في بطن أمه
وبهبه فلا يبكي، والذي يد الفرح باللهاء في بيضته لبقيه حيا، ويبه القوة
ليبقي بيضته ويفرج منها بشى على رجله ويصروه بكل قواه.

وتعيد إحياء الدين بطلب العباه أمور الدنيا إلى أمور الآخرة، فربطت
العقائد الدينية القديمة بين سعادة المرء في أخراه وبين ما يمكن أن يؤديه له ولده
من طقوس الجنازة حين وفاته، وما يتبعه به من شعائر القربان بعد دفنه،
ومنه يتكفل به لإحياء اسمه وإبقاء ذكره.

وتحدث ورد من متن الأهرام على لسان المعبد حورس (جورس) كولدبار
يناجي آباه، فقال: «اهض أبي حتى ترى هذا، اهض أبي حتى تسمع هذا
الذي يفعله ولدك من أجلك».

وتحدث ورد آخر من متن التوابيت على لسان والد نعم بسعادة الدارين

72
بفضل ولده، فقال: "أصبح مقعد في حوزتي، ولم يكن أي هو الذئب وهي لي، وليست أمي هي التي وجبها لي، ولكنه وريث هذا الذي أعطاه إياه".

وترتب على أمثال هذه التصورات أن اعتبر المصريون ثراء الدنيا قليل الغناه إذا أعوزته نعمة الولد، ولم يتصوروا سيئاً لسعادة من حرم من نعمة النسل غير النبي، يستفيد المرء منه لنفسه وقد يفيد به مجتمعه. وعبرت عن ذلك رسالة قال فيها صاحبها لصديقه الثرى العقيم: "إنك وإن تلك مقومة الثراء إلا أنك لم تعمل على أن تهب شيئاً لأحد. وأولئك من ينكه ولد أن يتخير لنفسه شيئًا يريه، فإذا ما عندك صب الماء على يديه، وأصبح كأنه ولده البكر من صلبه".

وشارك ملوك مصر شعبها في تنفيذ كثرة الأولاد لأنفسهم وللوطن كله. وإ/]عكس صدى هذه الرغبة على نصوص زعموا فيها أن أربابهم عدوهم فورة الخلف ومنوهم بعممان البلاد دوماً. ومن هذا القبيل أن قال القيس، حاتشبسوت إن أربابها قالوا لها: "سيعبر الصعيد وتعمر الدنيا بالدثارى، ويبدد أولادك كلا زادت بذور الخبر التي تجريها في نفوس رعيك".

وفي هذا الحد رجاء المصريون القدامى الأولاد لديهم وأخراهم، وساعدتهم طبيعة أرضهم وأوضاعها الاجتماعية والدينية على أن يستثدوا من العيال دون أن يتوقع فراقه لهم، ناهيك عن أغنيائهم، عنتي كبيراً أو إملاكاً.

ولكن على الرغم من ذلك كله - لم يكن هناك ما يمنع الأم من أن تتجنب الحمل إذا ضعفت عنه، أو تخوفت العجز معه عن تربة صغيرة إذا تناقص الواحد منهم تلو الآخر. ولذا اهتم بعض الأطباء بإيجاد وسائل معينة تؤدى إلى ومنع الحمل عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام، على حد قول نص مصري قديم.

ولا يناس في أن نشير هنا إلى مشكلة تاريخية تصل بنسبة المواليد في مصر القديمة، وهي أن رأياً شائعا قد أسفر في تقبل كثرة أبناء الملك رمسيس الثاني، فنسب إليه 59 بنتاً، و79 ولداً أو مائتان ولداً. ولكن إذا كان هذا الملك
قد بَرَزَّ بقيمة الملوك المصريين فعلاً في كثرة زواجه، وعمر نحو تسعة عامًا بحيث توفي له 12 ولدًا في حياته، إلا أننا نرى أن تقدير عدد أبنائه بهذا الكم الضخم لا يخلو من شك كبير. ولا نستبعد أن عددًا من اعتبارهم بعض المؤرخين أبناءه كانوا في واقع الأمر من أفراد بيت الملك فرّعوا الذين أنشروا إليه تشرفا، وصوروا بين أبنائه. وقد خدعهم عن حقائق وضعهم أن اللقب المصري «ساسيوس» بدلوله الشرقي عن ابن الملك، واللقب «ساسيوس» بدلوله الشرقي كذلك عن بنت الملك، لم يختلف أحدهما عن لقب الإمبراطورية العادى لقبة أفراد الأسرة المالكة الذين لم يعد يزيد عنهم في بقية القائمة سوى ولى العهد الفعلي وحده. وذلك مما يعني أن الأمور لا ينبغي أن تأخذ في الاعتبارها وحدها.

ومع ما قدره المصريون القدامى من فضل به، الذي يضمن الجنين في بطنه أمها، وبخطف تنفسه، ويزل السكينة عليه فلا يبتلي ولا يبتكي، فتطنوا في الوقت ذاته إلى أن غذاء الأم الحامل هو السبب المباشر لنمو الجنين وتغذيته.

وسمع المؤرخ ديودور الصفيق هذا الرأى منهم، فأعجب به، وكتب يقول إن المصريين وإن اعتقدها أن الأب هو المسئول فعلًا عن الإنجاب، إلا أنهم يعتقدون في الوقت ذاته أن الأم هي الوسيلة إلى تكاثر جن担保ة بالغذاء والجنة (أو الحفظ والحماية). ولا يستبعد أن يكون اهتمام السيدات حتى الآن بروح الحمل، وتبثبيه في فترة حملها خشيأ أن يتأثر تكوين الوليد بحرمها منه، آثرًا من آثار التفكير القديم.

وصورت مخطوطة الطب والرقي المصرية القديمة بعض جوانب العناية بالحوامل، كما صورت شغف أهلها بتخمين نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى. وكان من وسائل هذا التخمين أن تبول الحامل على حفنتين من الشعر والخطة، كل حفنة في خرقه على حدة. فإذا إذا الشعر أكثر من نمو الخطة كان الجنين ذكراً، وإذا غنت الخطة أكثر من نبات الشعر كان الجنين أثناً. وربما ظن أصحاب هذه الوصفة أن بول الحمل يتضمن بعض الإفرازات التي تخرج

74
من الجنين أو يحظى به، وتموها أن غلبة بعض هذه الإفرازات على بعض تنم عن جنس طفلها. ولعلهم لا يلاحظون تجربة أو بوحي المصادفة أن حبوب الشعر (وهو ذكر) تنمو بإفرازات الذكر أكثر مما تنمو بإفرازات الأنثى، وأن العكس بالعكس صحيح بالنسبة إلى حبوب الخنثة (وهي مؤثرة).

ورمزت بعض القصص والأساطير المصرية إلى ما توهمة الأمهات تشغفهن بالإنجاب قبل الحمل وبعده. ومن أشهرها أسطورة سجلا أتباع الملكة حاتشيسوس بعثة من عروض مولدها، وخلت فيها بين الواقع وبين تهافيف النساء واخره الكهنوت وحبل الساسة. وخلدوا صورها وأخبرها في لوحات ومناظر ملونة على جدران معبدها من منطقة النهر البحرى في غرب الأقصر (и مشاهد فيها بعد في عناصرها الرئيسية لوحات ومناظر ميلاد الملك أمنحوتب الثالث في معبد الأقصر).

وتم من ناحيتنا تفسير الجوانب المنطقة والرمية من هذه الملاحظات والأخبار.

النحو التالي:

كانت حاتشيسوس إبنة ملكة من دم عزيزي خالص وهي الملكة أحم.
ورمزت أحم هذه شرعية اعتلاء عرش مصر عن أبيها الملك أمنحوتب الأول، ولكنها اقتربت في شبابها بأخ غير شقيق أو أمبر شاب توقيح حكم مصر بعد وفاة أبيها باسم توتمس (الأول)، ولتملك في شبابها عدة أطفال يحمل أنهم كانوا ولدين وابنة. ويفهم من الأسطورة أن هذه الحال أمضت طفificant:
لمبرد أمبر رب الدولة وحامي عرشها، وذلك الملكة أحم نفسها، لاسيما بعد أن وجدت زوجها قد بني بغيرها، وخشيت أن يعثر عليه لأحد أبناء ضرائها. فتوجهت بدعاتها ورجازها إلى ربي أمبر وطممن أن يهذًا ملودًا يعصون العرش لفرعها الملكي الأصيل. وتlevant كبار كهنة أمبر دعواهم وادعوا أنهم وصلوا بينها وبين ريها.

وبدأت الاستجابة، في اهدت الأسطورة، بتصوير مشاعر أمبر، فصورته يدير أمره لإيجاد وريث شرعي يحكم مصر باسمه ويعوضها عمن
سلف من كبار ملوكها - وجعلته ينصرف برغبته إلى شخص الملكة أحمسد بعد أن تشاور في أمرها مع صفيه ورسله أو مبعوثه المعبد تحت رب الحكم، وسمع منه الثناء المستويض عليها.

ولما حزم آمون أمره، ادعى الكهان أنه أرسل بشيراً بإذنها إلى أحمسد، وصوروا هذا الشير على هيئة رسوله أو مبعوثه تحت رب الحكم، وضمنوا بشراه أن آمون أسر إلى بقية العبودات أنه سيذهب أحمسد مولوداً من صبه يعتلى عرش البلاد. وأضافت الأسطورة أن الإله قضى بأن يجعل مولوده المرتقب أنثى.

وأستفسرت الملكة البشير عن أيّة أو علامة، فأوحى إليها أن تزبي بزي العبودةموت زوجة آمون المقدسة. وأسر إليها أن آمون سيزورها بنفسه وأنه سيتبين وكالة زوجها تغوص الأول.

و حين اقتربت الساعة واجتمع الزوج والزوجة، أو الزب، والملك، هومت عليها عائلة قديمة مباركة، وتساموا طويلاً، وباح كل منها إلى الآخر بمكان نفسه. وتأدب الأسطورة فصورت الزوج المقدس يلامس الملكة باليد والرموذ دون ملابسة الجنس والشتهة، كما صورت عدًا من الربات يحضران اجتماعها دلالة على رمزية الاجتماع وطهارته.

وحظت المعجزة، وحملت الملكة. وآوى آمون إلى العبود خنوم المتكفل بتشكيل البشر أن يصور بدن الجنين من صلال، ففعل. وأسرع كبار الكهان إلى أحمسد على هيئة الأرباب وشروا بصدق الحمل. فلما حان أوان الوضع زارها العبودان خنوم مشكل البشر، وحجة المولدة، وأخذ بيديها إلى سرير ضخم فخم، ووعدها العافية وسلامة العقى، فاستسلمت أحمسد لها في استبار عريض عبر مصر الأسطورة عنه باستحالة حلوة مستبشرة سجليها على شغفها الرقيتين.

وتجاوزت الأسطورة عن تصوير الوضع ذاته، وصورت ما أعقبه من بركات ووجور. وروت أن العبود آمن غدير للمولودة اسم حاتشيسوساً معنى "دهر الربيعات"، بعد حوار شائق بينه وبين أمها، واعتبرها ابنته من صليبه  

76
وراثة لعرشها. وادعت أن أرباب الحماية والسرور أقضوا بركاتهم عليها وفرجوا بها. وأن فريقًا من كرامتي الرؤيات الح erotikات تمهدن بإيضاعها، وأن عددا من أرواح أسلاف الفراعنة الأوائل شاركوا في التهانى لموالدها هو وكاتبها أي أنفسها الفاعلة التي شكلت على صورتها.

وانتهت الأسطورة إلى خاتمة الطاف من روايتها، فأكدت أن الفرسون تحتويس الأول الأب البشرى للمسولون، تلقى إرادة الله أمان عن رضا وقاعة، وأعلنها على الناس، فنادى بمولمته حاتمبسوت شريكة له في الحكم وصرف الأمور، وعهد إليها بالعرش من بعده.

ووصفى متلاصقات حالة الوضع أسطورة أخرى، صورت ميلاد ثلاثة توائم لأميرة مباركة تسمى (روج جدة) وكاهن من أولاد رعب الشمس يسمى (وسر رع)، من أواخر القرن 22 ق. م. وروت الأسطورة أن رود جدة حين أتاهما المخاض لم يكن عندها من يساعدها عليه. وأراد الآله رع أن يعينها على الوضع فيبعث إليها بأربع مبادرات مبارك على هيئة البشر: قابلة وهي الربة إيسة (إيزيس)، وثلاث مساعدات لها وهن نبت حب (نفيس)، وحancing مسخنة. فضلًا عن تابع عجوز لعله حمل كريمي الندية أو حاجيات التولد، وهو المحرم خنوم. واستمرت الأسطورة في وصف ساعة الوضع وماظهر خلافا من الكرمات. فذكر أن القوابل الفردان بالحالم في غرفتها وأوصد من بابها عليه وعليها. وقيلت إيسة أمانة تقوم بعملية التولد، بينما جبت نبت حب (نفيس) خلفها تمشد عليها بشرها وتكون سندا لها حين المخاض وعونا على دفع الموالد. وقيلت (فحة) تعجل الوضع كما روت الأسطورة أو نعمة الطلق كا تقول نسوة اليوم. واكتفية الرابعة مسخنة بالشجاعة والتمثبة عنها العجائز المجربات المباركات. وكلا ولدت الولدات توابا بشيره مسخنة مما قدره من حظ سعيد وقالت ملكة سوف ينوي الحكم في هذه الأرض كلها.

وقبل طوب يقوم مقام مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كتان بسيط.
وأراد تابئن العجوز خنوم أن يؤدى دورًا يشكر عليه، فطمأن الوالدة على سلامتهم أبنائها الثلاثة، وزوّدتهم بالعافية، كما روت الأسطورة، ربما بدعائه المبرور أو يفصح أبدانهم الغضة بابطن كنه. خرجت الربات بعد هذا إلى الزوج فاتلقت ثوبه مقلوبةً من فرط جزوعه على زوجته وحلاها، أو إشارة إلى حالة الوضع في دار ولدتنا لأنظار إلى طلب التحدة، ولا يشربه بولادتها بينين ازاح القلق عنه ووهبهما ما كان يدخره في داره من الشعر، ولكنهم اعتذرين عن جمله وتركنه في لباقه. وبعد أربعة عشر يومًا تطورت النساء، واستعدت مادّة متواسفة أرادت أن تولىها للمهنيين وتشكر بها ربا على ما وهبها من سلامه وبينين (ربما في مقابل حفل السويس المعاصر). وحينها شبت الأبناء أصبحوا أوائل ملوك الأسرة الخامسة، واعتبرت أسطورة مولدهم دعاء لقداسة حكمنهم.

***

وفي عالم الواقع ابتعد الأطباء والطبيبيون المصريون وسائل عديدة لتيسير الولادات العسرة، بحيث تضمن خطروط على من القرن السادس عشر ق.م.، إحدى عشرة وسيلة للاستخلاص الوليد من بطن السيدة، على حد قولها. ونافس الكهان والرقام الأطباء والقوابيل في معالجة ما كانوا يندبون إليه من الولادات العسرة وكان بعضهم يرتدون ملابس معينة، ويسكون عنصراً خشبة ذات أشكال خاصة يلوحون بها حين يتولون رقاصهم لإقصاء من يتوهمون أو يتخذهما الوالدة من أشباه وشيطانين قد يتجهم حولها ويعلمن على توسع الوضع أو إفساد.

وعلى أية حال فلابد أن عمق تدين المصريين القدماء كان يدعوهم إلى أن يذكروا معبريديهم في ظروف الوضع وحين نجاحه. وقد قيل عن المجدود آمون "إنه ملد الحامل بأمان حين تحقق باسمه الأعظم".

وتوازنت وسائل رعاية الأم المصرية لوليدها بتناوًا للثقافة الوسطى المحيطة إليها، وصوتت المناظر والتماثيل القديمة بعض الأوضاع التي كانت الأمتهات يتذكروها حين الرضاعة. فال nok لم يجسدهما منهن على
الأرض أو يفترشان الحصير، وأكثر أوضاعهم شيوعًا حين الرضاعة، هو أن تفترش الأم ساقها من تحتها، وتضع رضيعها فوق فخذها وتسلمه طفلاً. وأقل أوضاعهم شيوعاً هو أن تجلس الأم وهي تقيم ساقاً وتحرك الأطراف، ثم تسند رضيعها على ساقها المتصبة. أما ذوات النعمة من الأمهات فصورتهن بعض المناظر تشبه أن القاعد بأطفالهن في استراحة مريح، وينعمن مع الإرضاع بأطابيق الغذاء ورعاية الإمام والمخدم.

وانخذت المصريات وسائل عدلاً لتيسير الرضاعة، فكانت إحداهن إذا استشعرت جفاف لبها استعة بوسائل التطبيب التي يعرفها مصر، أو تعودت بالرقي والتمائم. وتضمنت بردة مصرية قديمة وسيلتين لإدرار لبن المرضعة، أو استفادت جفافاً بأن تتحرر المرضعة عظام سمن في الزيت وتسحقها، ثم فاذاً بها سلسلة ظهرها. وأشاروا الثانية بأن تتبنين المرضع ببعض الحنجر (وهو من مكونات البصلين الحالي)، فتحرق رغيفاً عفناً، وتخلطه ببنتان خشأه ثم تأكل خليطها وهي جلالة تفترش ساقها من تحتها.

أما النساء اللائي اعتقدين في نفع التمائم، فكل يشترتين من أعياد المعبودات وموالد الأولياء تمام رقية من الحنجر والمعدن مشكلة على هيئة الثدي أو على هيئة المعبودة إيزيس (إيزيس) وهي ترضع طفلها الوحيد، أو هيئة المعبودة تحترو في شكل البتارة، أو المعبودة تورث في شكل فرسة النهر، وتعلنها على الصدر أو على الثدي.

واستخدمت القصور الملكية المواضع منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير، وخصصت لكل أمير مولود فيها مرضاة أو أكثر من مرضاة، وحاضنة أو أكثر من حاضنة. وكانت المرضاة تكلف أحياناً بدور الحاضنة والمربية. وروت قصة طفولة موسى عليه السلام في مصر شيئاً من هذا الوضع.

وحظيت أغلب مراضاة أولياء العهد بجزاء واف ومعالجة جماعية طبية. فخصصت لبعضهن ضياع مناسبة، وتمتعت ببعضهن بحقوق الأمهات.
على من تولى إرضاعه من صغار الملك أو أولياء العهود. وجاز لأبنائهن أن يتلقوا بلقب الأخوة في الرضاعة للفرعون الحاكم، كما جاز لأزواجهن أن يعتبروا أنفسهم في منزلة الآباء (الروحين) للترغية. وكان يفرده لهم أحياناً جناح خاص من أجنحة القصر الفرعوني. يسمى جناح الرضاعة أو دار المواضع. وجرى الأثرياء المصريون على جرى الأمر الماليك في استخدام المواضع لأطفالهم، وقلدهم بعد ذلك أهل الطبقة الوسطى. وتوفرت للمواضع في الأمر المضيف مكانة مقبولة سمت بين عن مستوى التابعات والجوارى، وسمحت لبعضهن بالإقامة مع أسرة الرضيع مدى الحياة.

واحتفظت المصادر المصرية بالنماذج طريقة من صور وفاة الرضيع بمرضه، والربيع ببريته. ومنها أن الطفل كان إذا بلغ سن الشباب وفارق أسرته ورسلها، حرص على أن يستفسر من حين إلى حين عن أحوال مرضيته. القديمة، على نحو ما يستفسر عن أحوال أهلها، وهكذا كتب شاب (من القرن العشرين ق. م.) رسالة إلى وكيل أعماله، قال له فيها: "أرجوان تكتب إلى عن كل ما يتعلق بصحة وحياة مرضيتي تياء". ومن أرق الوصايا التي تناولت أمر المواضع قول عنخ شنطي: "لا تعهد بولدت إلى مرضيتي بما يجعلها تنخل عن ولدها".

***

تفاوتت وسائل تطبيق الأطفال في الأمر المصرية باختلاف نوعية ظروفها واختلاف مستوياتها الحضارية. فنشأت بين أهلها عقائدة طبية، ووصفات شعبية، ونماذج واجبة مجردية. فضلاً عن دعوات دينية ورقية متقاربة كانوا يتلونها على العقائدة والوصفية الشعبية والتمييزية السحرية، اعتقاداً منهم بأن الدواء الذي يصفه المخلوق ينبغي أن يلمس الناس نجاحه من الحال.

وتعرف المشتغلون بالطب على وسائل تعبير عن الرضاعة الصحي من غيره. فاللين الصحيح تشبه رأحته رائحة مسحوق الخربوب (؟)، ولكن اللين الفاسد تشبه رأحته رائحة خيام السمك "محيط". وتعارفوا على
واسائل أخرى زعموا أنها تكشف عن مدى قابليّة المولود السليم للشفاء قبل علاجه. ومنها أن تسحق الأم جزءاً من مشيمتها وتخلفه ببته، ثم تسقيه إياها، فإن قاءه تكهن أن مؤس من شفائه. ويستطيع الطبيب بدوره أن يتسمع صوت المولود السليم، فإن سمعه يردد .، ن، رجح أنه سيبعث، وإن سمعه يداوم الآتين أو سمعه يقول .، مبي ، وآه، يطاطع رأسه، رجح أنه قصير الأجل...

وابتداع الأطباء عقاقير لتنظيم تبول الطفل والتنقية من صراخه، وتخفيض أوجاع التسنين، وعلاج ما يصيبه من النزلات المعدية والرمد والسعال. ولا تزال بعض عقاقيرهم تستخدم الرفقات أمثالاً حتى الآن، فالخشخاش (أو قشوره) كان يستخدم في الأساطيس الشعبية لتنظيم الأطفال. وأضر السعال كانت ولا تزال تعالج ببذور الكراوية وعسل النحل. وعلاج النزلات المعدية بعقار يتكون من أطراف سقان البردى وجبوب «سبة»، وأب أم وضعت مولوداً ذكراً. وأوصت بعض خطوات الطب بعقار معين لتنظيم تبول الطفل.

ومنها أن ينفع المعالج بردية قديمة مكتوبة في الزيت الساخن ويضعها على بطنه الطفل (حتى يتفاعل عليها نبات البردى وحبر الكتابة مع الزيت، وربما تفتح في علاج السعال أيضاً إذا وضعت على الصدر). أو ينفع زهر نبات «نبتة» في علاج العاصي أيضاً إذا وضعت على الصدر، أو ينفع بذور نبات (خنت) على هيئة أطعام يتناولها الطفل مع اللبن أربعة أيام إذا كان رضيعاً أو مع الطعام إذا كان قد فارق سن الرضاعة.

أما أوجاع التسنين، فقد أوصى بعضهم من عقاقيرها ببعقار عجبة وهو لحم الفأر المسلوق. ولكن قد يخفف من غرابة أن لحم الفأر ظل يستخدم كدواء فعلاً لدى بعض الإغريق والرومان في العصور القديمة، وعند بعض المشاركين والمعاربة في العصور الوسطى. ويقال إنه كان يوصف في بعض جهات ويلز بانجلترا إلى ما قبل أجيال قليلة لعلاج أوجاع التسنين أيضاً وتخفيض سبولة اللعاب، وعلاج السعال عند الأطفال.
لا شك في أن اعتماد التطبيق المصري القديم على العقاقير الفطرية أو الساذجة في بعض أموره، واعتقاد الأمهات في نفع الرقي والتمائم، كل أولئك يوحي بأن توفيق المصريين في وقاية أطفالهم وعلاج أطفالهم كان توفيقاً محدوداً، لأنها في أوضاع الفقر والعمال. غير أن شأن المصريين في ذلك ينبغي أن نقارن بما كانت عليه أحوال المجتمعات القديمة العاصرة لهم، وليس بما أصبحت عليه أحوال المجتمعات الحديثة المتأندة...

فالتطبيق الفطرى والشعبي والاعتقاد في نفع الرقي والتمائم كان من شأن الشعوب القديمة كلها. وتميزت الأسر المصرية الواعية من جانبي بعادات حمودة اعتبر الكتاب الإغريقي القديم بعضها آيات تحذى. وتتصل هذه العادات بنظامية البدن ظاهره وباطنة، ومنها:

أولاً: عادة غسل الطفل عقب ولادته، وهي عادة يمكن أن يرتقب عليها أن الأم المصرية كانت تستحب الاستحمام لطفلها منذ أعوامه الأولى ولا يتشاه، ولقد لا يكون في ذلك شيء غير في منطق العصر الحالي، ولكن تتضح أهميته إذا قررن على سبيل المثال بما ذكره المؤرخ بلوتارخ من أن أطفال إسبرو كانوا يتبينون بالاستحمام في أيام معينة من كل عام.

ثانياً: تقسيم شعر الطفل. وذلك أمر عادي هو الآخر، ولكن المؤرخ هو رودوت رتب عليه نتيجة صحيحة مقصودة، وهي رغبة المصريين في
تقدّم جلد الرأس وزيادة صلابته بمعرفته غبارًا لحرارة الشمس.

ثالثًا: عادة الختان، وعليها اعتبار حتى وذلك من عوامل نظافة البدن أيضًا، وارتستها العقائد السماوية رقمًا للمرغ أيضًا، لاسيما بالنسبة للذكور. وقد شاعت بين الجماعات السامية خاصة.

رابعاً: غسل اليدين حين تناول الطعام، وهي عادة إن لم يأخذ الطفل بها في صغرها، فلا أقل من أنه كان يعتمد عليها حين يطلب عن طفولة، وكثيرًا ما اعتبرت الطسوت والأبلازي من أعمدة الأسرة المصرية، ووضعت بجوار موائد الفقراء وموائد الطعام حتى في مناظر الحياة الآخورية.

خامساً: الربط بين النظافة وبين النظير بالنسبة للبالغين، كالتظاهر من الجناية ومن النفس والحيض، والنظير قبل أداء الشعائر الدينية، وله كأن من شأن التزام الكبار بالاغتنام والنظير ما يجعل الأبناء يعبدوه حين يعون مبادئه وصروراته.


وقال الحكم أث لولده: «إذا طعمت ثلاث كميات وشريت قدرتين من الجعة، ولم تقنع معدتك فقاومها، مادام غيرك يكتفي بالقدر نفسه».

وقال ثالث لولده: «لا تخبر نفسك عن أن تشرب زق جعة».

يريد بذلك أن يقول لا تعرنك الاعتقاد تحمل معدتك ما لا تطبيق.

سابعًا: روى المؤرخ ديدور الصلح أن المصريين اعتدوا على الحقن والحماية والمجياث على فئات متقاربة، وأهم أن يروا ذلك بأن أغلب الغذاء الذي يتناوله الإنسان يزيد عن حاجة وولد الأسماق، وأن الاستغناء عن بعضه يستأصل العقد ويكفل العافية. ولا يبعد أن الكبار كانوا

83
يشجعون أبناءهم على هذه العادة منذ الصغر حتى يألقوها حين الكبر (مثل التعود على شرب زيت الخروع ومنقوع السلامكة). وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله إن: "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء".

وأخيراً فليس من المستبعد أن العادات المحمودة التي أخذت بها بعض الأسر المصرية الوعيقة في أمور النظافة ومراعاة التوست في الطعام والشراب، كان لها بعض الأثر في تخفيف أضرار الخرافات والاعتماد على الرقى والتمائم التي اعتادها عامة الناس وشجع عليها أدياء الطب والسحر وصبغوا بها كثيراً من وسائل الوقاية والعلاج طوال العصور القديمة.

***

84
الفصل السادس
من التسميات القديمة للمواليد

على نحو ما يجري أحياناً حتى الآن، كان تسمية الطفل في مصر القديمة اعتباراً خاصاً في محيط الأبوين، لاسيما بالنسبة للمواليد المميزة، أي المولود البكر، والولد الأول بعد عدة إباعات، أو البنت الأولى بعد عدة أولاد.

وعلى الرغم من أن أغلب الأسياح والكتيبات الشخصية تفقد مدلولها الحرفية عادة بعد شيوع استعمالها، إلا أن طائفة من مدلولاها المميزة لا تخلو أحياناً مما تؤثر به في التكوين الوجداني لحاملها من الصغار أو الكبار، ولا تخلو أيضاً مما تعرض به عن الروح الشائعة في مجتمعها وطابع العهد الذي ظهرت فيه.

وتضمنت التسميات الشخصية المصرية القديمة من حيث المحتوى أسياح دينية الطابع، وأخرى دينية الصبغة. كما احتوت من حيث المبنى على أسياح بسيطة التركيب، وأسياح أخرى مركبة الصياغة تظهر عادة في شكل جملة تامة. وقد شاع بعض هذه وتلك طوال العصور القديمة كلها، بينما اقتصر تداول بعضها الآخر على عصور دون غيرها أو أكثر من غيرها.

87
مع التسليم ابتداءً بوضوح اختلاف الأسماء الشخصية في مصر القديمة
عن الأسماء الشخصية الحالية في كل من اللغات والترميز أو البني المعنى، تبعًا
للاختلاف الزمني والمغزى والعقلائي بين الماضي وبين الحاضر، إلا أن
الخلفيات المعنوية والنفسية للبعض منها تتشابه فيما بينها إلى حد ما. وتضح
ذا في غلبة تعبيرها عن روح التندين، والإقرار بفضل المعبد، والثائر
بالظروف الاجتماعية والسياسية والأممية المعاصرة لها.

وهكذا نجد من نتائج مدلولات بعض أسماء الأولاد التي نذكر بعضها فيها
بصفة مصرية القديمة للتعرف بها، وتذكر بعضها الآخر بمعانيها تخفية
من غرابة نطقها (مع تأجيل نتائج أسماء البنات إلى صفحات تالية):

1 - كثيراً ما كان المولد يسمى باسم يتمني الخبر له مثل "سنتب" أي سليم,
"واعز عني" أي يحيى، "وادى" و"مرى" "وحسي"، أي عبيد،
وجرب، ومداح "ونخي" أي شديد، و"سنافي" أي يسلم لي، و
"عنن تنغي" أي سوف يعيش (طويلًا)، وهلم جرا. أو يسمى باسم يتمني
الخبر لذويه مثل ما يعني "عاش الوالد"، و"عاش الأخوة" (هما يعني أنه
عوض عنهم كما يقال الآن عوض وموضوع وعوضين).

2 - وقد يسمى الطفل باسم يميزه بين إخوته وأقربائه، مثل "بسن" أي
سيدهم، "باسم" و"باحسر" أي السر، و"بنتين" أي
رئيسيهم، ولؤّفت أسماء سيدهم وزينهم، والأمير والحسن (وكذا
ستهم ورئيسي) شائعة حتى اليوم.

3 - وقد يسمى بصفة جسمية ما، مثل الأسود أو الأسير، أو الأحر،
توارى للقب الأسرة، أو للتميز بين أخوة يحملون اسمًا واحداً بناءٍ على
لون البشرة أو لون الشعر لكل منهم. أو يسمى بما يعني الصغير،
والطويل، والضرير، وأبو عين (جاجحة)، وجبل الوجه، وجِلَّي
زي النجم، وأبو رأس كبيرة (أبو رأسين)، وأبو كفا.
4 - وقد ينسب المولود إلى بلدته أو مكان ولادته، مثل المنفي والطبيب، كما يقال الآن طنطاوى وشبراى ومدياطى ... إلخ ... أو ينسب إلى حرفها ما مثل التجار، والجندى، والبدرى، والفلاح، وإن كانت هذه أقرب إلى الكتبات التي توارثها الأسر الأكثر منها إلى الآسية المباشرة.

5 - وقد يشتق اسم الطفل من ظروف وضعه، أو من عبارات نطقته بها الأم أو القابلة حين ولادته، مثل «إيجيبت» أي الآن في سلام، ومرحبًا)، و«إيسخ» أي جاء بسرعة، و«سالم» أي ابن قادم، وما يعنى «كم تمثيله» (وقد يقارن هذا بكعبه في مثل تسمية مثاب وعسان لدى بعض الأعراب، كما يقارن بفس الوراثة لأناس إسحق وعيسى ويعقوب وغيرهم، وهي آسية تنص في ظروف ولادتهم.

6 - وقد يسمى عرضاً باسم حيوان أو نبات أو شيء ما، مثلما يقال حتى الآن ذب ونخلة وصقر وعصفور ولجدى والقط والسبع والنمس ... إلخ.

7 - وقد يسمى الطفل باسمين، اسم عادي واسم تدليل، أو اسم عادي وكنية، أو اسم يختاره له أبوه إرضاء لأمه، واسم تقضيه له أبوه إرضاء لأمه. بل وقد يسمى بثلاثة آسية أحيانًا من هذه وتلك، ويكون منها ما يجد به اسم الملك الحاكم بصفة جليلة ما هو أمر شائع كما سوف يرد النص عليه.

8 - تلونت معظم آسية المواليد المصرية القديمة بروح التدين الغالبة على مجتمعها، ورغبة الإشادة بعبودات قومها والإقرار بفضلها، وعلى نحو ما يقال حتى الآن إن خير الآسية ما عبد ومحمد، تأثراً بروح التدين الإسلامي، كان من الآسية المصرية القديمة ما يربط بين المولود وبين معيب ما (الأسرته أو بلده أو قومه) بربط نسبية وعبودية في عبارة تامة المدلول مثل: «حسى رغ» أي مداح رغ، ومتلك: «رحم رغ» و«باكن أمون»، أي خادم رغ، وعبد أمون، وربط نسبية والتبجيل مثل «نفوسر» أي الرج غني، و«أيمنان» أي أمون في الصدارة، و

89
«آمنو وع» أي آمن واحد. ووصف المعبد بصفات القدرة والبهاء والجلال مثل «نفرحن بناح» أي جمل وجه بناح، و«تحوي نخت» أي المعبد تحتوي مقندر، و«أوزير عنخ» أي أوزير حي. ورباط الشكر مثل «نعمرات بناح» أي خير ما فعله بناح. ورابطة التوكل مثل «عنخي مع بناح» أي حياتي في يد بناح. ورباطة القرابة والحياة والأخوة أيضاً في حدود ما سمحت به العقائد القديمة) وما يعني رعاية المعبد له كابن وأخ، مثل «سابلون» أي ابن آمون، و«سنمون» أي آخ المعبدة موت. وقد يتأثر الاسم في الأوساط المثقفة ب地中海 عقائد خاص فيه إلهاً آخر، أو يوجدهما في كيان واحد.

9 - وقد يحمل الاسم معنى النسبة إلى المعبد مثل «حواري» أي المستجاب إلى المعبد حور، و«سيتي» أي المستجاب إلى المعبد ست. أو يحمل معنى استخارته الإله في شأنه قبل مولده مثل «جد بناح اوف عنخ» أي قال بناح إنه سيتعيش، أو يعتبره عطية منه مثل «بادي أوزير» أي من وجدته أوزير، أو عطية أوزير.

10 - وقد يسمى الطفل بيوم مولده، مثل «طفلك اليوم الثامن أو التاسع» على نحوه ما يقال الآن خمس وجمعة (وكانت الأيام تعرف قديماً بترتيتها وليس بأسمائها). وقد يراعى ترتيب ولادة الأبناء فيقال «وعي» أي واحد، وما معناه: الأول، ثم الثاني، والثالث، والرابع. ونذكر أن زاد العدد عن الخمس على الرغم مما أشتهيه المصريون من حب كثرة النسل (ويمكن مقارنة اسم العدد هنا بتسليم السيدة «رابعة» العدود).

11 - وقد يسمى باسم مناسبة دينية أو وطنية يحتفظ بها في حينه، مثل تسمية «حور محب» أي المعبد حور في عيد، و«أمنيابة» أي آمون في الحرم. وما يعني وجود تمثال في البحرية المقدسة أو في معبد زوجته موت إذا صادفت ولادة الطفل يوم الاحتفال بعيده، وهو ما قد يشاع إليه حد ما مع ما يقال الآن في تسميات رجب وشعبان ورمضان وعيد.
12 - وقد يسمى الطفل باسم شائع أو مستحب في الأسرة (جد أو خال أو عم). كما يسمى باسم ولي العهد أو الملك الحاكم، إما عن طريق استعارة حرفية الاسم نفسه مثل خيبر وأمنحات وسنوسرت وأحس واستحوذت وخضوعه، تبعاً لشهرته، أو ولادة الطفل في يوم مولده أو يوم تزويجه. غالباً ما يضاف إليه ما يتضمن الإشادة به والولاء له والدعاء من أجله مثل "خونو عخت" أي خونو حي، أو عاش خونو، و"خنفر عخت". "وبني نخت". وقد يضاف ما يقول على سبيل المثال: "سيتي في بيت خونو"، تعبيراً عن تقوى الملك سيسي وزيارته لمعبد موحى، وما يعني: "وما على رأس جيشه" إذا صادفت الولادة يوم خروج الملك أو عودته على رأس جيشه. وقارن هذا بتسمية البنين وحدة أو معاهدة مثلاً منذ سنوات قريبة في مناسبة إعلان الوحدة أو توقيع المعاهدة - وهو أمر معدود إلى اختيار أحد الأبناء وعند تأثرك بحدث ما.

13 - وكان من الكنائس التي تطلق أحياناً على الأبناء ما ينتمونهم أكثر من أسمائهم، وابنهم لها من وضوح الملذول ما يمكن أن تؤثر به إلى حد ما في شخصيتهم وفي طريقة معاملتهم الفريدة. عن قصد أو غير قصد، تأثيراً قد ينفعهم أحياناً أو يضرهم أحياناً أخرى.

ومن الأسماء المصرية القديمة ذات الوقع الطيب أسماء "باميا"، أي السبع، و"مسرحات"، أي الجسور، و"سنن"، أي مسعد القلب، و"روفن"، أي سيكورن لي أخا...، والمسعد،...، إلخ.

ويختلف تأثير هذه الكنائس أو الأسماء عن كنائس وأسماء أخرى ربما أرادت الأمهات أن يدعمن بها الحسد وعين المرأة عن أطفاهم، مثل: "جار"، أي عقرب، و"بوب"، أي الغار، و"سمن"، أي جرادة، و"نساب"، أي حلة، و"نخشي"، أي ما عرفه، و"بوبrer"، أي العين، و"رون"، أي ما كان اسمه. كما يقال الآن "خشي" و
شحته، وشحاتة مشلاً - وكلها في الأغلب من أسياط العظام، ومتلها قرع، والقزعة أو القزم. وقد تسمى الخادمة ولدها "أبنا سيد" أو "أبنا السيد".

14 - لم يكن المصريون القدماء ينادون أطفالهم بأسمائهم كاملاً، وإنما كانوا يختصروها ويجورونها، ويرغمونها وينغمونها. وهو أمر طبق على بعض أسياط الملوك العظام أنفسهم مثل "خنوم خوخيو". وقد يستبقون الجزء الأول من الاسم ويتخلون بقيته، أو يأخذون منه حرفًا أو خرفيين وضفون إليه نهاية تدليل أو تكرار، كا مبرى حتى الآن في مصر وفي غيرها. ومن الطريق أنما ولدوا أسياط رقيقة قد يتلاد إلى الذهن من عزوتهما أنها من ابتكرات العصر الحديث، ومنها أسياط "إبى"، و"باب"، و"تى"، و"توى"، و"تبي"، و"فيفي"، و"فيفي"، و"ءى"، و"ءى"، و"ءى"، و"ءى"، و"ءى"، وإلخ. والأطراف أن اسم الملك رمسيس الثاني العظيم كان يحتفظ أحياناً إلى اسم سيبى، وأسم سويسر، وذلك ما يعني أن أغلب أسياط المصريين القدماء لم تكن بالصعوبة التي تبدو بها الآن.

15 - وحين يتدخل اسم معبود في اسم الطفل، فغالباً ما كان الميداني يحتتط اسم المعبود تأدباً أو ثخفاً، فيختص اسم أسمكاحات إلى معبات، وأمون عمب إلى عمب، ومنجع مساف إلى مساف، وهو بناحية إلى مري، ولكن دون التحرج أحياناً من النداء باسم المعبود نفسه أو التسمية به مثل "معب" و"خنوم" و"وتنفو" (ومع أوزير). ولا ضرورة لاستهجان هذا الاتجاه الأخير تمامًا أو الظلم بتطاول المصريين القدماء على معبودتهم إذا لم نلاحظ أن مجتمعنا العاصر قد يختص اسم عبد الحليم إلى حليم، ويختص اسم عبد المنعم إلى منعم، دون أن يتطلقو إلى الدهن أية شبهة للاجتياح على الدين ومقداساته، وذلك ما يعني مرة أخرى أنه لا ينبغي التسرع في نقد الخضارات القديمة دون بحثها.
بما يتناسب مع عصورها القديمة وظروفها الخاصة، ومقارنتها بغيرها
بما عاصرها أو أعقبها من الحضارات.

من مدلولات تسميات الإناث :

16 - اشتركت أسماء الإناث في مصر القديمة مع أسماء الذكور فيها في بعض
خصائصها وانفردت عنها بعض آخر.

وبدلت معظم أسماء البنات في المجتمع المصري القديم على أن
أغلب الأسر كانت تتقلب مولد الأبناء بقبول حسن وترفض بها رضا قد
يقرب من رضاها بقبول الذكور. وتقول بقرب من الرضا بقبول الذكور
 دون إغفال الأمر الواقع من أن أغلب الشعوب القديمة ظلت تؤثر
الولد على البنت بناء على اعتبارات متنوعة، بعضها محتمل بالنسبة
لعصراها، وبعضها متعلق. ولم يكن هذا الإشار واضحا لدى
المصريين وضوحا لدى غيرهم من المجتمعات المعاصرة لهم.

17 - واتسمت أغلب تسميات بناتهم بطابع العذوبة والإعتزاز ورغبة
التدليل. وهي تسميات تسهل التعبير عن مدلولاتها باللغة الدارجة
أكثر من اللغة الفصيحية. وكان منها على سبيل الاستشهاد أسماء:
«نفرة» أي جميلة، و«نفرو» أي جميل، و«بنيرة» أي طمعة، و
«حريرة» أي زهيرة، و«سنت» أي سوسن أو زهرة اللوتس، و
«جحسة» أي غزالة و«نفرتاري» أي حلوتة أو حلوتهم، و
«حرس نفر» أي وجهها جميل (أو خلوة الحيمة)، و«مرارة» أي
محوبة، و«حمت نفر» أي السيدة الجميلة.

18 - ومن أسمائها ما يكشف عن استفادة الآثارات بدل بهن، مثل «دوات
نفرة» أي صباحية مبكرة، و«نوبة نفر» أي قدم الخير، أو بشرة
السعد. وما يعني بالعامة هانوها، وياريتها تعيش لي، وخلوتي
أشفها. ومثل "حرون سن" أي سنهم، و"سات مرت" أي الابنة
الحبية، و"سنب حننس" أي معها السلام، و"محتني" أي رجائي
أو اللي رجتها، و"تاهر تنحس" أي الدنيا تدعو لها، و"نفريني" أي
الحلى جاية أو الجميلة آتية، و"فرنس ماب" أي اسمها في بالي، و
"رنين" أي الجمال. وقد يقول الأب عن الولادة التي ماتت أمها بعد
وضعها (تركن عوضا عنها)، أو ينسبها إلى نفسه في اسم "مرت
"إيتس" أي حبيبة أبيها، و"دنس إيتس" أي أخت أبيها، و"موت
"إيتس" أي أم أبيها، إذا شافت أخته أو أمه أو تميى لها أن تقوم
مقامهما.

19 - وشأنها شأن أسية البنين، كثيراً ما الحلفت أشياء البنات باسم معبود أو
معبودة ما بروابط الولاء والتبغية، أو الشرك والتهمج، بل وbbenة
والأخوة (الرمزية) أيضاً.

20 - وكما هو متوقع، غالباً ما كانت أشياء البنات تتخصس وتتحور، وتتخيم
وتنغم أكثر من أشياء البنين، وينادين أهلهم يشمل أشياء "تبد
"وتبنت، و"شيريش"، و"تيتي"، إلخ.

21 - وكان تسميات الأساط الأوساط الشعبية تعبيرات تنم عنها أحياناً، ومن
أشياء التنليل فيها للبنات: "تأمية" أي القطبية، "أويا" أي
خوفتها، بل وخلوتيه، والرقابة، وقد تهشي الأم الحمد على
طفلتها تنسبها "دجت موتس" أي اللي لقيتها أمها، و"ترختوس" أي
ما حدش يعرفها، و"ترقورة" أي ضفادة، و"فرقة" أي بقجة، و
"ستي إبنة بنت" أي (اللهم) ابنة العين الشريرة أو أكفكشة شر العين،
"وثناء إبنة إسو" أي تمسك الربة إبنة يهم (وهم الحاسدين أو

94
الشياطين) ولم تكن الأمهات على سواء في الترحيب بمولد الأنثى، وكانت منهن من تثير بكثرة بناتها فتسمى صغرىهم "إسراخ" أي عاملة كفده ليه؟ وما إلى ذلك من أسراء معبزة عن حالاتها الخاصة.

22 - وثقة أسراء مصرية قديمة مشتركة كان يسمى بها الولد والبنات على سواء مثل أحس أو إعمس (أي ولد القمر)، وما يصف حدثاً لاصلاه له بنذير ولا تأثيث، مثل اسم يقول "أمون في الحرم" وقد تقارن أمثال هذه الأسراء بما يشع حتى الآن من أسراء مشتركة للبنين والبنات مثل قمر ونور وقدر وجمال وعفت... إلخ.

23 - وأخيراً، فليس من المستبعد أن روح التنوع النسبي في تقبل الأبناء والبنات ظل أثرها باقياً فيها لازالت بعض الأمهات الشعبيات يرددنها من أهازيج المهدية التي ترحب بمولد البنين بما يقرب من ترحيبها بمولد الولد، وتقول الأم فيها بلهجتها العامة:

ما قالوا لي حلمي - اشتد ضهر أبو وقام.
وجاني الحباب الهوني - ومن فرحني ما جايني منام.
ما قالوا لي دني كنها - قلت يا ليلة هنئة.
بنتي الحبيبة أهلي جاهية - تنغنى وتحنى على.

ومع ذلك فلا يخفى هنا أن الأم تحمل الولد أملها، وأمل زوجها ويبعث عنة الحباب أيضاً، بينما هي توشك أن تجعل البنين عضدا لها وحدها.

***
الفصل السابع
الأبوان والأطفال في المناشير ومجموعات التماثيل

صورت بعض المناشير والتماثيل الصغيرة والنصوص المصرية القديمة، صوراً طبيعية مختلفة من رعاية الأم لولدها في سنين المبكرة. فهي تحضنها رضيعاً لما يتراوح بين العامين والثلاثة، وغالباً ما ترقد معها، وتطعمه على خاصيتها، أو على كفتها أو حول كفتها، وقيلياًً ما تحمله بين يديها من أمام في مستوى بطانها. وإذا خرجت به نشته بالأوضاع نفسها، أو حملته عنها حاملة على خصرها وشذته إليها بشاش عريض. وإذا بدأ الطفل المشي تعلق بيدها وهي خارجة، أو أجلسه معها في عчная الخروج. ومن المناشير والتماثيل الصغيرة أيضاً ما يعمل الأم في دارها تمشيط شعر بنتها، وتضمن إليها أولادها، وتستمع مرحهم معها. وقد تصور الأم تضع ولدها على حجرها، أو ينهل المثال وأفاقاً بجرار محقدها وهو يريح يده على فخذها بينها هي ترتب بيدها عل ذراعه في حب متبادل.

ولم يفت بعض الفنانين المصريين القدماء أن يسجلوا صوراً من حياة العطف والتوحد بين الأب وأولاده، وما يدل على أن الأب المصرى لم يكن
بالرجل القديمة يتداعدوه أطفاله، على الرغم من أنه كان يلبسهم فيه من أدب
السلاطين التقليدية أمام المجتمع. فصور الأب أحياناً يتطلع لولدته الصغرى
يصعد على نفذه ويتقدم عليه مستنداً على ذراعه، أو يجلسه هو على حجره.
ويعبده بذراعيه.
وكيماً ما صور الأب يضع يده في يد ولده الصغير دليل التماسك بينهما.
أو يضع يده على رأسه كأنما يبارك. وصورت البنت بالقليل أحياناً تستند بيدها
على كف أبيها، أو تلمس كفته وهو يلعب الدامة مع أمها.
وصورت المناظر بعض ما يكون بين الأطفال الأخوة الصغار حين يسكون
بعضهم بجوار بعض، ويبدل بعضهم بعضًا، ويحضن بعضهم بعضًا،
ويركب بعضهم فوق ظهر بعض، وكسفت بذلك عن روح طبيعية طلقة
أخذت الإسرار المصرية بها في معاملة صغارها ولم تر في تصويرها على جدران
المقابر ما يجافي قداستها ووقارها، ولعلها استحبت أن تجدها لأمثالها في
أخرى.
ويفهم من قصة سنوهي أن بنات الملك سنوسرت الأول كن يعين الأب
الملك صباحاً أحياناً بترانيم شعيبة وتوجيهات موسيقية، حتى في حضرة بعض
ضيفيه المقربين.
ومن أمعام ما يجسد روع التواصل بين الملك وبين أبنائه وبناتهم تلك المناظر
والتماثيل التي صورت أختاً وفرتته زوجته نتفتي وقتها يجلس بناته على
حجره أورفه في تدلى، أو يقبله ويتقبل عقبين معه في سعادية
غامرة. وتختص هذه الظاهرة والظاهرة السابقة عليها لصالح البنات وأوضاع
الإناث.
وصور الرسامون والثالوث المصريون عدداً آخر من الأوضاع المثالية التي
ارتضاه المجتمع من الأبناء فيها بعد سن الطفولة المبكرة. فالولد غالبًا ما
يصور واقفةً مع أبوه الماجنين. وتظهر البنت معها واقفة أو جاذبة وقليلاً
ظهرت جالسة. وقد يفترش الولد والبنت الحصير، أو يجلسان على مقاعد
منخفضة حين تناول الطعام، بينما يجلس أبواه على المقاعد المرتفعة. ولم يكن من الختم بطبيعته الحال أن يتقدم الأولاد والبنات بهذه الأوضاع داخليًا وإنما هي أوضاع مثلية كدليلنا، كانت تستحب في مناسبات خاصة، وتستهدف تأكيد الأواصر بين أفراد الأسرة وأخذهم بأداب السلوك.

***

وتعود بنا صور الطفولة إلى مشكلات العري والهيب في مصر القديمة مرة أخرى. فيها جرى أغلب الفنانين المصريين على تصوير معظم الأطفال عراة تماماً يضع كل منهم سبابة يده على فمه، وتنسلد جليلة شعر سميكة على صدغه، تحدثت مصادر مصرية قديمة أخرى عن ملابس الأطفال، كماصورت بعضهم يقفون بجانب آبائهم في انتصاب ثابتة تدل على بلوغهم سنًا يعهون معها خطأ كشف عوراتهم دون حرج، وخطًا وضع أصابعهم على أفواهم كأنهم يطلبون الرضاعة أو يسبغون الطعام.

وفيما بين هاتين الظاهرة المتقلبتين نرى من جانبنا تفسير ما جرى عليه معظم الفنانين القدماء من تصوير عري الطفولة وتميله على الرغم من احتمال خلافته للمواقع، بعدة أسباب. ومن هذه الأسباب أن يكونوا قد ورثوا تصوير هذا الوضع ما سبقهم من عصور ما قبل التاريخ المبكر، وقلدوا، ثم اعتدوا عليه واعتبروا تقليداً فنيًا واجب الأتباع. أو أن يكونوا قد تقبلوا بامتثال وسيلة فنية تعبر عن حداثة السن وواسطة حياة الطفلة بوجه عام، وتعرض في الوقت ذاته عن صعوبة إظهار تاطيع الأطفال بدقة فعلية. ويتسم بعض هذا إلى حد ما مع ما لازال بعض الآباء والأمهات يعيدون في العصر الحاضر من تصوير الطفل في مرحلة الرضاعة والحب عارياً كأولدته أمه، بينما هم يدرونوه في غير لحظة التصوير بما قد ينوه بهم من اللحاف والملاصق، وذلك عن غربة منهم في تسجيل بساطة حياته وما فيها من براءة وسماحة، وما يتخيلونه في جسمه من لبون وطراوة، فضلًا عن الاعتقاد بأنه ما من حرج عليهم في إظهار عورته في صور براها الصغر أو الكبار.
وأخيراً، ومع شيء من التجوز في توضيح خصائص الفن المصري القديم يمكن تشبّه استخدام الفنان المصري القديم لما قدرنا شرحاً من رمزية العري النصفي للرجال، والعرى الضمني للنساء، والعرى الكلي للأطفال، بعِمَلٍ أُخرٍ قديم. ومن أهم هذه الأمثلة ما اعتاده الفنانون الإغريق القدماء من تمثيل الشبان الرياضيين بـ ورجال الرياضيين ذوى اللحي في عرّى كامل تماماً، رغبة منهم في تأكيد تناسق الجسم الرياضي، وإظهار دقة تكوينه، وإبداع تفاصيله، حتى وإن اختلف هذا العرّي الفني مع واقع الحياة الفعلية لأصحابه. وعندما اعتاد الناس على مشاهدة هذا العرّي وعوداته جيلاً بعد جيل، تناسوا ما فيه من مجنه على قيم الحشمة والحيوء، وتقولوه حتى بالنسبة لصور معبوداتهم ذاتها.

***

لعب وألعاب الصفار:
وجد في بعض آثار مصر القديمة ومناظرها المصورة لكلّ سن صغيرة ما يناسبها من لعب وألعاب. وقيمت من لعب الأطفال دمي وعرائس كثيرة صنعت من الخشب والأعاج والإطبل والجلد والحجر. ولا تكاد بعض نواعيها تختلف كثيراً عن عرائس ودمي أبناء الأوضاع الشعبية في مصر المعاصرة.

ومن أجمل أنعمات الفن المصرية القديمة لعب المتحركة. وثمة واحدة منها صنعت من الجلود ووجدت في قبر صبيّة تدعى حابي، في فترة ما من الدولة الوسطى. ومثلت فرقة أفراداً راقصة بزيل أفرادها خشبة مسرح صغير، ويوقدهم رئيس (مايستر) يضبط الإيقاع فهم بالتصفيق. ويتخذ كل من اللاعبين وضعياً يتم عن دوره. فيفجر أحدهم فاه كأنه يغني، ويخرج الثانى لسانه كأنه يتفكّه، ويتنجى الثالث بجسمه مظهراً براعته. وأتسلت بقواعد الأفراد الفردية نبئيّة كانت صبيّة تحرك بها أفراد الفرقة أن شاءت.

وإلى جانب اللعب التي مثلت هيئة بشرية، وجدت لعب أخرى مثل حيوانات يمكن تحريكها. ومنها ما يتمّ تحريكه وحده غير كيف يتحرك. 102
بخيط يتصدر به، وضفادة عاجية صغيرة ذات فك متحرك أيضاً، وليؤة خشبيّة ذات فك متحرك كذلك تبدو كأنها تسير في خط متقاطع وثيد، وقطة خشبيّة ذات فك متحرك وعينين مطعّمتين. ولعبة متحركة تجمع بين إنسان وحيوان وتتمثل رجلاً مذعوراً ومن ورائه كلب يستطيع الطفل أن يحركه فيبدو كأنه يلاحق فريسته.

وشاعت العراس والدمي العادلة بين لعب الأطفال، ومتلا أشكالاً إنسانية وأخرى حيوانية، وثالثة جمعت بين هيئة الإنسان وهيئة الحيوان. وصنعت بما يناسب إمكانات الأسر المختلفة، أي من الخشب والصلصال والفخار والقش ودل الحجر والعلج.

وصرح على بعض هذه العراس أشكال القلاقد ورسوم تخطيطية وحيوانية. وزين بعضها بخصل من الشعر الطبيعي وشعور مستعار من الخيوط المجدولة والصوف وحبات الطين المسلوقة في خيوط على هيئة الخرز. وتميز بعضها بأذرع تصل بأجسامهما بوصلات خشبيّة صغيرة بحيث يستطيع الطفل أن يحركها ويدخل الحياة فيها.

ومن أطرف الدمى همّة تمتّ مئات أجيال لا يبتينها أمامها لتمشيها شعرها، على نحو ما تفعل الأم البشرية مع بناتها.

ودمي أخرى تجمع بين الإنسان والحيوان، ومنها قرد بجرة، وطفل يلاعب جروا، وفارس أو سائس ينتهي إلى مهارة ذات عرف قصير ورشد للجامه، وقزم يبرز قط، وأسير يبرز بطة، وفص يهاجم ثعباناً، وريش ينفتل بزنجي، وقيل يعلو راكبه.

ويشب الطفل عن طقوسه، وينصرف عن العراس والدمي والألعاب الفردية إلى الألعاب الجماعية وجزاءمالة رقاق سنه. وفيها بين حدائق القصور وسطح الدور، وخلال الأزقة والأطلال والحقول، مارض الأطفال صنوفاً عدة من الألعاب المرحة لا تكاد تتفرق عن ألعاب أطفال القرن ال٢٠ في شيء كثير.
ومن الألعاب التي صورتها بعض المناضلين المصرية القديمة لعبة لازالت تمارس باسم خرّة أوارة، ويجلس لها صبيان متقلبات يضع كل منها قدمًّا فوق الأخرى، ويتباع أطفال آخرون في الدفع فوقها، ثم يزيد كل منها قبضة ليده فوق قدميه مرة، وكفه مرة، وكفية مرة أخرى...

ولعبة أخرى كان الصبيان يتبادرون فيها على اقتلاع أدوات مدبة يرشقونها أولاً في كلّة خشبية، ثم يحاول كل منهم أن يسبغ غيره إلى اقتلاعها والقفز بها بعيداً بضربة عصا سريعة. وكانت تؤدى بثلاث وسائل، يشركم فيها اثنان أو ثلاثة، ويسكن اللاعب فيها عصا أو عصواً، ويضرب فيها أداة مدبة واحدة أو أداتين...، ولعبة ثالثة كان الصبيان يعتمدون فيها على أعقاب أقدامهم ويدرون عليها في شبه حلقة دائريّة، بحيث يقف اثنان منهم في معورها، ويسكن كل منها بيد زميلين له ما يليان إلى جانبيه...، ورباعية كان اللاعبون يقسمون فيها فريقين، ويجالون كل منها أن يذهب الفريق الآخر ناحيته، مما يشبه لعبة شد الحبل الحالية...، وخاصة كانا يلعبون فيها بعض معقوفة وطوق، فيقف اثنان على جانب الطوق ويسلك كل منها عصاه في بحيث يتشابك مع عصا زميله ثم يحاول كل منها أن يخلص عصاه ويذهب الطوق بها قبل زميله...، وسادسة تشبه لعبة وعساكر وحريمية، يتظاهر الصبيان فيها بجدة مفتعلة لطيفة...، وسابعة تشبه لعبة جوز ولا فرد، يلعبونها بذرور أو حسً، ويؤدونها بثلاث طرق يشركم فيها اثنان أو ثلاثة أو أربعة...، ثامنة يقف فيها ثلاثة أولاد جنبًا إلى جنب، ويصعد رابعهم ليتقلّق فوق أكتافهم معتمداً على يديه وقدميه، مما يشبه بعض ثمارين الجماجم الحالية.

重要意义ت من هذه الألعاب الساخرة ألعاب أخرى ناضجة سجلتها مناظر مصرية قديمة ترجع إلى حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، وتضمنت قرينتاً للف لجذب الأعلى في شدة، وتمثّرتاً آخر يعتمد فيه غلام على ناصية رأسه، ويقيم جسمه محفظًا بتوانزه في استقامته كاملة دون ارتكاز على يديه أو كفية.
وأوضاعاً مختلفة أخرى يشترك الصبية فيها فيما يشبه العرض الرياضي المرح ويكتسبون بها نصيباً من الرشاقة ومرونية الحركة.

ومارس الفتيان عدا هذه الألعاب أحياناً أخرى يطلب أداةً لها نصيباً من الجهد والتدريب والمهارة، مثل المصارعة وحمل الأثقال والقفز والتحطيم والعدو والسباحة والتجديف، وكان يؤديها الشبيبة عادة هواة محترفين.

ويحاول الصغار أن يقلدوهم في بعضها كلما استطاعوا.

وهي لأبناء الطبقتين الشرير والوسطى ممارسة ألعابهم الجماعية عدة عوام، منها وجود قواعد أساسية لها تجري بمقتضاها، لاسيما بالنسبة للمصارعة، ورسماً أهلاً عن ممارسته لها مع زملائهم، وقد بلغهم هذا الرضا في ذكرنا إلى حد السلع بتصويرهم يبدون على جدران مباهرين رغم الطبع الدنيوي والآخروى هذه المقابل. ومنها كذلك أن أغلب الدور الكبيرة القديمة كانت دوراً عائشة وعذبتها الراعي، قد يسبنها رب الأسرة وأولاده المتزوجون واحفاده، وتتوفر فيها أحياناً حدائق متسعة وأفغنة رحبة. وذلك على العكس بطبيعية الحال من بيوت العامة التي صورتها المناشر والأطلال البدائية وطيفة في كل حالة متلاصقة، والتي لم يكن لأطفالها أن يمارسوا ألعابهم الجماعية في غير الأزمة، وقرب المزارع، وبين الأطلال القديمة، كلما تحرروا من العمل ومن السعي وراء كسب الرزق.

***

وعلى الرغم من طابع الاحتشام والتحظف بالنسبة للإناث، صورت بعض المناشر المصرية القديمة شغف البنات بأداء ألعاب مرحة في وحدات صغيرة تشارك فيها خمس منهن، أو ستة، أو من بين أقل من ذلك أو أكثر، في اللعب بكرات اليد الصغيرة، وفي أداء رقصات مهذبة ورشقة، وأخرى أكروباتية جريئة مثيرة.

ولعبت البنات كرة اليد بأساسيات صغيرة تشبه أساليبها الحديثة إلى حد ما، ومنها لعبة المحاوره، وعبة أخرى تعتم في وقتكان ظهرى زميلين لها، مع
رسائل الساقين جاناً، ونتقاذفان كرتين في سرعة وخففة، ومن فشلت منها في تلقف إحدى الكرتين نزلت عن ظهر صاحبتها لتصبح مركزها لها. وطريقة ثالثة تلعب فيها كل فتاة بكرتين أو ثلاث كرات وتلتقاها بكفتها في سرعة وتتابع جاعلة يديها مفرجتين أو متخالفتين على صدرها.

ومن البنات من كن يؤدين الألعاب الراقصة برفع ساق وخفض أخرى، مع التوقيع بالكشفين لصت حركة، أو تحريك أجزاء الجسم في حركات رشيقه، مع التصفيق الراقصة المرح.

ومن الشابات من اشتركن في لوحات حركية جريئة قد تقلب الواحدة فيها زميلتها رأساً على عقب، وقد ترسل الواحدة ساقها على كفتها، أو تنشئ بها إلى الخلف في انتقاء تقرب من هيئة نصف الدائرة. وربما قلدت بعض هذه اللوحات ما كانت تقوم به المحترفات للألعاب البهلوانية أو الأكروباتية، وكلها ظواهر تصور طابع الأسرة المصرية القديمة، والثرية والوسطى منها بخصوصة على شيء من البس وحب المرح، دون روح التزمن أو القتامة.

***
الفصل التاسع
قيم الأمومة والأبوبة وآداب البنوة في الفن والأدب

ركى روح السماحة في حياة الأسرة المصرية القديمة ما تقدم الاستشهاد به من توازن مقبول لمكانة الزوجين، وتقارب معقول في معاملة ما يرافقه من بنين وبنات. ولم تكن تعاليم الحكاءة وصيغ عقود الزواج ومذكولات أسيا الموالية هي المعمرة وحدها عن تأثير هذا التوازن والتقارب وإنما عبرت عنها كذلك بعض الفنون التصويرية والتشكيلية المصرية القديمة، وهي يسعى أدق عبرت عن أفضل ما كانت عليه، أو ما كان ينبغي أن تكون عليه.

وجنبًا إلى جنب مع التصور والتمثيل الفردى لكل من الرجال والنساء على حدة، أخرج الفن المصري القديم مجموعة تشكيلية وتصويرية كثيرة متراطبة لأزواج وزوجات بنين وبنات.

ولدت صورة الرجل في كل لوحة وفي كل مجموعة تماثيل هي العنصر المتميز على ما عاده من حيث مكانه وحجمه ومظاهر وقائرة.

وتظهر الزوجة عادة واقفة أو جالسة بجانب زوجها بحيث يظل ارتفاع قامتها بعض الشيء عن ارتفاع قامة اعترافًا بواقع الحال بينها. وتكون للزوجة
وجدت العادة على أن كلياً ظهر الأب المصري مع بني وبناته في منظر ما أو
في مجموعة ما أن يذكر كتابة أنهم (جميعاً) أبناءه وأحبته. وعلى نحو ما كلا
يسجل مع اسم كل ولد منهم على حدة أنه (ولده وحبه)، كان يسجل مع
كل بنت منهم أيضاً أنها (بنته وحبه). وهكذا بطبعية الحال كان شأن الأم
حين تصوراتها إلى جوارها، وتؤدى دائماً على أنها (بنته حبيبته)، أو حبيبته
أمها). ويمكن أن تقرر هذه الظواهر بظواهر أخرى تستشهد بها بعد قليل عن
العدالة النسبية في تورث الأبناء من الجنسين، وفي تقبل المجتمع لأوجه
أنشطة الأشي المناصرة لها إلى جانب أنشطة الرجل.

***

110
الزوجة الأم

تمثلنا فيها تقدم بناضج لما كان من البدائي أن تقوم به الزوجة المصرية القديمة من أدوار طبيعية في حضانة ورعاية صغارها خلال سن عصرهم المبكر. ومشاركة زوجها في تربيتهم خلال مراحل طفولتهم الناضجة، على حين تسنم له زمام أمرهم وأمرها في مراحل صباهم وفتوتهم وضيجهم.

وكان من صور رعاية الأم أولدها في سيئة أن تتحمل غذاءه وشرابه إليه في مدرسته كل ظهيرة. وقد دأبت زوجة أن حكيم القرن السادس عشر ق.م. على ذلك فترة طويلة، فظل زوجها يحمدها صعبها بأكثر ما كان يزكي صباهه، حتى نضج ولده، فوعده وقال له: «ضاعف الطعام الذي تخصصه لأمك، وتحملها كما تحملتك، فطالما حملت عنبك ولم تلقه على...، وإذ ولدت بعد أشهر تلصبت لصبيتك بك وأرسلت لك ثديها طيلة ثلاثة أعوام»، وتحملت أذي قاذوراتك دون أن تنس قائلة ما هذا الذي أنعه (؟) إلى أن قال:

وعندما التحقت بالمدرسة لتتعلم الكتابة فيها، واظلت دون على الذهب إليه يومياً بالطعام والشراب من دارها. فذا شبت وتزوجت واستمرت في دارك، ضع نصب عينيك كيف ولدت أمك وكيف عملت على أن تربيك بكل سبيل. ولا تدعها تلومك وترفع كفمي ضارعة إلى الإله فيستجيب لدعوها».

أوصي عنخ شا شتيقى بالحفاظ على كرامة الزوجة الأم في حضرة أبناءها بيت قوله «لا تضحك ولدك وتزيه على أمه، تريد أن يعرف قيمة أبيه، فإنه ولد فحل من فحل (من غير أم)».

وجسد الأدب الديني فضل الأم الأمول في حل عبء تربية ولدها في شخصية إنسا (أو إيزيس). وكانت قد احتضنت ولدها مورث مقتل أبيه ونذرت به في أخرج الدلتا عدة سنين، أهله فيها خفية لاسترجع ملك
ابه . كما نسبت إليها أسطورة متاخرة أنها ألحقت ولدها بمدرسة أتقن فيها أساليب الكتابة وممارس فيها فنون الرياضة والتغذية أيا حظى فيها بمهمات التربية والتعليم كاملة.

ومع هذا الدور المشرف لبعض الأمهات، تخوفت قيم المجتمع عواقب لين الأم مع أبنائها وتتابع تدليها لهم في مراحل صباهم، وأصرت على أن يتولى أبوهم أمرهم في هذه المراحل دونها، أو على الأقل يشرف عليها وعليهم فيها.

وهكذا نبه حكيم مصري قديم إلى مغبة اللين بين ولده وبين أمه حين قال: " طويلة مات كان جاداً (حتى) إزاء أمه ، فهو جدير بأن يتبعه الناس كافة". وعلى ذلك أن من يعتاد الجدية في بيته يسهل عليه أن يمارس السيادة خارجه، وأن حياة اللين والتذليل في البيت قد تفسد على الشاب شخصيته.

***

112
الأب ربة الأسرة

غالبت بعض مؤلفات الأجيال الماضية في تصوير مدى سلطة الأمومة في المجتمع المصري القديم والقول برد النسب فيه إلى الأم والانتقال الملكية العقارية ووراثة العرش عن طريق خط الإناث دائمًا. وهي مؤلفات وإن استرشدت في حينها بشواهد فردية معينة إلا أن شواهدها عدودة العدد ولا تكاد تتصددم أمام أصلة أخرى كثيرة ترجح غلب سلطة الأب والأعتيا على ردع النسب إلى الأب واعتباره العامل المؤثر في شؤون الأسرة والعمل والإدارة والمجتمع في معظم عصور مصر القديمة.

ونكتفى هنا بنتائج دراسة أجريت على نحو 91 سلسلة نسب مصرية من عصور الدولة القديمة وتبين أن 44 نسبًا منها ذكروت الأب والأم معاً، وأن 37 منها اكتفت بذكر الأب وحده، وأن 11 منها فحسب اكتفت بذكر الأم إذا ما كانت هذه الأم أميرة ملكية ورثت ولدها لقبًا نبيلًا، أو كانت ثرية ورثته ممتلكات ذات قيمة كبيرة، أو أن يكون الولد نفسه غير شرعي فلا ينسب لأب.

وتبدلت الأمور إلى حد ما في نصوص عصور الانتقال الأول والدولة الوسطى حيث زاد ذكر الأم في بعض النصوص بالنسبة لأبناء أصحاب النصب، ربما لوضوح نسبتهم إلى أبيهم الذين صوروا معه، أو أن يكونوا قد ولدوا له من أمهات مختلفات، كما زاد ذكرها كذلك في نصوص الأتباع والخدمين نتيجة فيها تبدو لازداد نسبة الأرقاء من البدو الأسيويين وأمثالهم من العاملين في قصور الأثرياء في ذلك الحين.

وعادت نصوص عصور الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديمة إلى محاها الطبيعية القديمة وغلب فيها ذكر الأب والأم معاً أو ذكر الأب وحدها. وإذا ذكرت الأم وحدها يكون من عوامل تخصيصها مما قدمناه عن عوامل ذكر الأم في نصوص الدولة القديمة.

113 (م 8- الأسرة)
وقد يضاف إلى كل هذا أنه ما من وثيقة حكومية أو أدبية ذكرت إسياً رئيسياً فيها ونسبته إلى أمه وحدها، وإنما ظل النسب فيها يرد إلى الأب دائماً.

وأطلمان حكاياء مصر القديمة إلى أجواء الأب في مجتمعه، ورحلت في داره، وحكموا على مدى آثره في أسرته من خلال سلوك ولده، وربطوا بينهما مثل قولهم: "نهج الولد نهج والده" على نحو يقال الآن: "الولد سر أبيه"، وكانوا إذا رضوا عن فتي قالوا: "أنجبته روح أبيه"، أو قالوا: "ما أصلح تهذيب أبيه". وقالوا كذلك "الأم ولادة والشبه ينتج الشيب".

وقد الأب المصري الوعي مستشارة التربية، وكان إذا نجح فيها وأحب أن يترحم الناس عليه بعد وفاته، قال: "أنا الناس ادعاو لفلان الذي كون أُسْرته وربي أُولاده، وفعل الخسني على وجه الأرض". ورتب المجتمع على الوالد واجبات إزار أُولاده صورها الحكيم بباح حورية مترفقة في سياق تعاليمه وذكر منها أن عليه أن يلمس كل شأن فاضل لولده الطيب، وأن ترى عيناً وتسمع أذناً ما يدفع ابنه، وأن يفده بخبرته، ويسعى إلى رفع مستوى كلا استطاع إلى ذلك من سبيل. وهي غايات سبق بحثها بإسهاب في مؤلفنا عن "التربيا والتثقيف في مصر القديمة".

وفي مقابل مستشارات الأب، افترض المجتمع له حقوقاً واسعة علماً وأولاه الطاعة والاحترام، ولم يأبه عليه أن يقوم سلوك ولده ويخذه بالشدة إذا ضل ولم يعمل بنشائه، سواء بالضرب أو التنبيه أو البراء منه جملة. وصار حرتوبة سلطة التقويم هذه فقال: "إذا ضل ولدك خالف نهجك ولم ينفذ تعاليمك، وساءت تصرفاتك في دارك، وتحدى كل ما تقوله، وتنسب فمه بقول قبح، فإن هذه فإن وجه ليس ولدك، ولم يوجد لك... انتبه"، واعتبره شخصاً آدانا الأرباب ولعن الله خطيهه...

واستنكر حكيم آخر أمر الأب إذا تجاوز في إظهار حزمه عند الضرورة، وأصر على أن الوالد الرحيم شيء، والوالد اللي بن شيء آخر، وأنه ما من ابن هكذا من تأديب أبيه، وأن العصا والحياة يقيدان اللذين شر الفساد. وتكررت...

15

ووصفت بحرية الأمور في إحدى الأسر المصرية المتوسطة بضع رسائل من أوائل القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، كتبها حقا نخت إلى ولده الأكبر مرسو. ويتضح من هذه الرسائل مدى الإشراف الذي أفرضه الآباء لأنفسهم على أولادهم وله بلغوا سن العمل، ومدى الفوارق الطبيعية في معاملة الوالدين لأبنائهم وفق أعمارهم، ومدى الحرص من ربة الأسرة على جوهرية ومقتنياتها الخاصة.

ترك حقا نخت أولاده الخمسة في طيبة، وارتحل إلى منف ليبشير بعض أعماله فيها لمفرات طال بعضها عن العام. وعهد إلى ولده البكر مرسو بأرضه وتخازن غلاله ومدخرات داره، كا عهد إلى ولد آخر يصغره بخمس وثلاثين رأساً من المشاية شارك جاره فيها. وكتب حقا نخت إلى ولده الأكبر عدة رسائل من منف تظهر فيها شدته عليه وتحريمه إياه مستويات الأسرة وأرضها كاملة. فكتب إليه قائلاً: "إذا طغي الفيضان على أرضي فالويل لرجال ونكل، ولن ألقى المسؤولة إلا عليك". وقال: "عليك أن تبذل الجهد في أرضي، واجتهدي بأقصى ما تستطيع. أعزق الأرض وندخل في كل عمل". وكان لا يفتقد يكارر عليه قوله: "إنك سعيد إذ أعولك، ولما إذا اجتهد دعا الناس لك. وإذا لزمت الهدوء فإنه نعم العمل".

وتحلى حقا نخت عن شدته بالنسبة إلى ولده الأصغر سنفو، فكتب عنه إلى أخيه يقول: "إذا لم يكن سنفو ما يكفيه مكع في الدور فلا تتوان عن إخباري، فقد بلغتي أنه غير راض. اعتني به كثيراً واكمل له مؤنته، وأبلغه سلامي ألف مرة، بل ألف ألف مرة. اعتني به وأرسله إلى بعد أن تحرث الأرض مباشرة". ثم كتب عنه ثانية، فقال: "إذا كان سنفو يريد أن يعتني بالمشاية فقدعه يفعل، فهو لا يجب أن يجري معك هنا وهناك في حرش الأرض، كما أنه لا يريد أن يأتي هنا، وعليك أن تمعه بكل ما يجب".

115
وكان لِلرجل ولد يدعى "ساحتجور" اشترك مع هادمة تدعى سنين في مشاكسة جارية أبيه، فلم يرد حقا نهضت على أن صب غضبه على ولده الأكبر والخدام معاً، وتغاضى عن شقاوة الولد الصغير، فقال له وارد الحادمة سنين من داري في الحال، ولكن احرص على أن يتردد ساحتجور عليه يومياً، وإذا بقيت سنين في الدار يوما واحداً وأسأت إلى جاريه فذاعت المعلوم، وإلا فيا الذي تستطيع جاريه أن تفعله معكم وأتينا خمسة عجلات؟ سلم على أمي إبي أثل مرة، بل أثل أثل مرة.

وعاود حقنا نهض الحديث عن جاريه في خطاب آخر، فقال لولده:

"لا أرى أنها جاريه، وأنه ينبغي أن تتعامل جارية الإنسان بالحسيني...، وإلا كيف أعيش معكم في دار واحدة إن لم تختصروا جاريه من أجل خاطر؟" (ويندأ أنه تزوج جاريه بعد أم أثردها فأصبحت إمرأة آب).

ولم تختلف سلطة الأب في الأسر الثرية عن سلطته في الأسر المتوسطة، إلا باختلاف الوسط واختلاف الظروف. فقد تعمد الملك توجيهه الثالث على سبيل المثال، أن يشيء ولده الباري، أي متحيز (الثاني) تنشئة جادة صارمة، وارتباطه له ولم يزل صبياً صغيراً أن يفرق قصره في طيبة ليقيم مرهب في قصر الحكم بعده جريحاً. ولم استد عوده أرسله إلى منف والحقق معسكرها الكبير لياضتر جنده، معيشته، ويتزوجه العسكرية بينهم، وعهد إليه بالإشراف على تربية خيوله الحربية وتدريبها، وعلمه. ولم يعلن رضاه عنه إلا بعد أن تبقى أنه "استطاع أن يولي ظهوره لشهواته الجسدية وابتنى لنفسه حياة الجدية على الرغم من صغر سنها" على حد قوله.

على أنه أيا ما بلغ من سلطة الأب المصري على أولاده، فهي جد معقولة إذا قورنت بأمثالها في مجتمعات قديمة أخرى. فقد أباح بعض الإقليد الأولئ للأباء حق الإحياء والإماتة على أبنائهم، ويعتبر آخر أجاج بعضهم، وأد الأطفال، والبنات منهم بحالة، مثلما أخذت به بعض القبائل العربية في العصر الجاهلي فيها بعد أشي ظهور القفر، وقلة احتمال البنات لطلب
الهجرة والحركة فضلاً عن التعرض للسبي والعذاب. وأباح الأشوريون والروماني للأب حق رهن ولده وبيعه حين الضرورة (أو بيع مجهود عمليه على أقل تقدير).

ومن وجوه الاعتدال في معاملة الأب لولدته قال عن خ شقيق ياب تدع عمل الخادم لولدك إن استطعت أن تجعل خادماً يوديه، وانبكي أن تنسب في أن يفقد ولدك دخله (أو استقراره). وًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًًٍ
صور من أدب الأبناء
( في المثل العليا والواقع )

نظم الحكماء المصريون تعاليمهم بما يتفق ومطالب مجتمعهم والروح العامة التي سربت بين طبقاته، فوافقوا الآباء على ما افترضوه لأنفسهم من حقوق الطاعة والإشراف على أبنائهم وأكردوها لهم، وقالوا معه بأنه «ما من مولود يبلغ الحكمة من تلقؤ نفسه».

ولكنهم أثروا سمة التوسط في تعاليهم، واستحبوا من الأب أن يشفع أمره ونبيه بوسائل الإقناع ما استطاع. ونهاوا الأبناء إلى أن فضيلته تعود بالنفع عليه وحده، وأن خير ما يمكن أن يراء عن أبيه هو توجيهه إلى خير الطريق والعدالة. ودعاوه إلى أن يجد نحو الكمال من أجل نفسه ومن أجل الناس بشرط رئيسى هي أن يرضى بما قدر له، وأن يتجاوز مع الأوضاع القداسية التي ارتفعا الأرباب وفراغة لمجتمع، وأن يراعى التوسط في معاملة رئيسه ومرؤسه، ومعاملة نفسه ومطالب بنه، واختيار مناسبات صمتته ومناسبات كلامه ووردت هذه التعاليم والشرائح في سياق فقرات ونصائح متنوعة علنا بتدوين في كتابنا عن التربية والتعليم في مصر القديمة.

وكان من الطبيعي أن يتفاقم مدى رضى الأبناء بما دعاهم الآباء الحكفاء إليه، كما يتفاقم في كل عصر، فيكون منهم الببار والفاعل، والصالح والطالح، واللذين والعاصي، والواعي والغافل، والذكي والأحم.

وحرص الأبناء الكبير على أن يسجلوا اعتراضا حقوق الأبوة وواجبات البنوة في نصوصهم الخاصة. فكتب أحدهم في سيرة حياته يقول: «لكت عكاز الشيخوخة في يد أبي ما بقي على وجه الأرض. وكانت أرواح وأغدو وفق أمره، ولم أختلف أبدا ما قره فمه، ولم أتعود أن أتلعع إليه بنظرات كثيرة، وكانت أطأطى بوجه حتى يُهدئ». 

ولا يزال صدى بعض هذه الآداب بقاءً في المجتمع الديني المصري حتى
الأدبيات التي تستحسن من الصغار عدم حضور مجالس الكبار، 
وعدم الجلوس وهم وقفون، وعدم إبداء الرأي المعصوب في مواجهتهم، 
وعدم مجادلتهم فيما يترآون.

وشاعت بين خيامهم عادة احترام الآب لأبيه، وقيامه عند التحدث 
إليه، وحمايته على استحباب، وتوفير كبار السن بعامة.

وأتت هذه السلوكيات قصص مصرية قديمة، ورغم إليها بعض 
الفنانين كرا ردده الأبناء أنفسهم فيها كانوا يسجلونه عن سير حياتهم من 
نصوص. واستحسنته المؤرخ هيرودوت فيها رواه عن الشباب المصري في مثل 
قوله: "حين يلقي الشباب المسنون يتحون جانا ويفسرون لهم الطريق، وحين 
يقترب منهم الكهول يقومون عن مقاعدهم".

ومن أقدم القصص التي رمزت إلى أدب الطفولة، قصة تعرف باسم قصة 
الملك خوفو والسحرة (أو هي على الأصح قصة خوفو والكهنة المرتدين). وهي 
قصة صور رايها الملك خوفو العظمّ صاحب الهم الأكبر أبا ودوداً كأخيار 
الأبناء، يجمع أولاده حوله ويسامرهم ويسمع من كل واحد منهم ما وسمه 
علمه من أخبار الماضي وأهل المعجزات فيه، ولكنه، أي الراوي، يعتمد في 
الوقت نفسه أن يسجل أدب الأراء في حضرة أبيهم، فقدم الحديث كل أمير 
منهم مع أبيه يقوله: "وعندئذ يغيب الأمير (قلان) وافقاً ليتحدث، ثم قال 
لأبيه إن أقص على جلالتك كذا وكذا...

وبسب أن استشهدنا ببعض ما صوره الرسامون والثالوث المصريون من 
الأوضاع التي ارتضها الآباء من أبنائهم في المناسبات الخاصة، فالولد غالبًا ما 
يصور واقعاً مع أبوه الجالسين يقدم له قربان الآخرة، أو يمسك بعصا أبيه 
باعتبار وبرته مباشرةً على طريقه وخللته في بيته. والولد والابن إذا جلسا فهما يفطران الخصر أو 
يجلسان على مقاعد منخفضة حين تناول الطعام بينما يجلس أبوهما على مقاعد 
مرتفعة. وقد يسر هذا أن بعض الوقائع والولائم كانت تقام دون بسط
الموازنة المشتركة ويقدم الخدمة فيها أصناف الطعام واحداً بعد آخر. وعلى أية
حال فلم يكن من الضروري أن يتقيد الأطفال والبنات بهذه الأوضاع دافئاً،
وإذا هي في الأغلب أوضاع تقليدية كيا ذكرنا من قبل تعتبر عن المبدأ وتستحب
في مناسبات معينة.

غير أن قصر سلوك النساء المصري القديم على هذه النواحي الطبية من
السلوك ، لا يكمن أن يصور الواقع كله ، فليس من شك في أن الميل الطبيعى
من الشبان إلى التحرر من كل سلطة تفرض عليهم ، كان له أثر في تكييف
سلوك بعضهم إزاء سلطة الآباء وتعاليم الحكمة. ولم تخل الآداب المصرية من
الاعتراف بهذا الواقع ، فقال الحكيم بباح حوتب لولده في حديثه عن الآباء
والابناء : " . . . وكم من والد في عناه ، وأم ولود تجد غيرها أهداً بالا
منها" . وقال عنخ شا شنتى "إنه تمثال من حجر ذلك الابن الغريب الذي لم
يربه أبوه" ، و"تمثال حجر خير من ولد أحق".

وصورت مصادر تعليمية مصرية أخرى انصرف بعض الشبان إلى اللهو
ومعاقرة الحمر وإيثر جلسات الغناء والنساء. ووصفت بعضهم بأنه قد يسهل
ترويض الأسود وكبح جماح الخيل وتدريب العجوانات حتى ترقص وتطيع ،
بينما لا يسهل ترويضهم هم أو كبح جماحهم أو تعويدهم على الطاعة .
ووصفت بعضاً آخر بأنهم يتسكعون من حي إلى حي تسبقهم رائحة الحمر .
فإذا وصل أحدهم إلى حارته جمع البنات حوله وسلم يدق بيديه على بطنه كأنه
يضرب على الطبلي !

***

١٢٠
الفصل السابع
من مثاليات الأسرة
في الحديث - ومادة التوريث - والفرق بالاختلاف

أرسلنا من مثاليات الحياة العائلية في مصر القديمة ثلاث سمات وهي:

- سمة التوسط في تقرير حقوق الرجل والمرأة.
- سمة التوسط بين حدود الجدية والحسمة وحدود المرح والاستمتاع.
- سمة الاستقرار العاطفي والعائل وحالة ترتيب على من رغب أفراد الأسرة في دواوين ترابطهم في الدنيا والآخرة، وهو ترابط لا يدب أنهم اختلفوا في تصويره وتصوير حدوده، ولكن الفنانين حرصوا دائمًا على تأكيده في لوحاتهم التصويرية التي استشهدنا بمضامينها في مناسبات سابقة حيث عملوا على أن يصوروا الأبوين متجاوزين في أغلب الأحوال.

وعلى أن يجمعوا أولادهما حولهما، أو يصورونهم ينشرشون الأرض تحت أقدامهما. وإذا خرج رئ الأسرة الثرى إلى الاستمتاع بصيد الأسماك والطيور بقرابه الخفيف، لا يصورونه يستأثرون بسعة الصيد وحده، وإذا يصورون ولده في صحته يحمل له صيدله أو يتمرن عليه ويساعده عليه، وتكون زوجته من خلفه تستده بديها أو تسانده عليه. وتركز ابنته لدى ساقية تقطف زهور الماء لنفسها ولأبوها، أو لعمل العطور منها، أو تسك بسوق البردى واللوتس.
المتربطة لتحفظ نوازن القارب حين يندفع أبوها إلى الصيد بحبيته أو عصابة المعقوفة. وقد يكون مثل هذا التجمع في مناظر الصيد رمز عقائدي إلى جانب مدلوله الاجتماعي الذي يرتكى له الدوام في الدنيا والآخرة.

وأيضاً، لنرى من خلال عادات المجتمع المصري من شئونها مثاليات أخرى من أهم سماتها مثلها، وهي إثارة التدين وعائد التورث وروح السمحة في معاملة الخدم والاجتماع.

ويبن عن غلب الأدوات الأسرى في مصر القديمة قرائن عديدة، منها ما أسلفناه عن شيوخ الطايع الذي في أسماك الموايل ورغبة الوالدين في التعبير بأسما أطفالهم عن ارتباطهم بعباداتهم والتوكل عليها، وابتداع جماهيرها، والإقرار لها بالفضل والنفع.

ويني فلو كلاً كأنت إذ ما من عائلة من العائلات المصرية ذكرت أو صورت على الأثر إلا وانتسب فرد منها أو أكثر من فرد إلى خدمة المعابد والأرباب. وقد لا يقرأ هذا الانتساب من نوع ما من الادعاء في بعض أحواله، ولكنه ادعاء لا يقل في الوقت ذاته من دلالة على أن الأسرة المصرية كانت ترى مثلها الأعلى في التدين، وأن المجتمع كان يتطلب منها روح الإيمان بالآلهة وخدمة معابداً والمشاركة في طقوسها (وفق العقائد الوضعية القديمة بطبيعة الحال).

ولم يحرص رجال الأسرة وحدهم على التدين وخدمة معابدتهم، وإنما كان للنساء كذلك نصيبهن من مطال التقوى والتدني وخدمة الماء، وكانت بعض بيوت التدینين تتضمن محاريب صغيرة للعبادة، وصوراً لمعبودات قومها. ولعل ذلك كان يحكي إلى كبرهم وصغرهم بقربيعهم من رهم ويوجه أنظارهم إلى ما يرضيه أو يغضبه.

وصورت منهجاً من روح التدين في العائلات البسيطة، لوحة للرساس يدعى نبي أمون، عاش في فترة ما من القرن الحادي عشر م. م. في غرب طيبة. وقد موضوع ولده خلفاً، فاته بدعاته إلى ربه الأكبر أمون.
يقول له «لعن شفيت في ولدٍ لأقيٍّ تذكَّرًا باسمك، واسجُّل لك عليه
نشيداً مكتوبًا». 

فلما أُجِبَ دعاؤه، أو في بعده، وأقام نصبه كبيراً باسمه وأولاده
الأربعة، وصارهم يصلون معه لأمون، وتوجهون بالثناء على من حيا
أسرته بفضله، وسنج هوره قائلاً: «أنتم رب السماوات، أنتم من تجب
دعاء المسكن. دعونا وأنا مهموم، دعوتني وعاوني».

ودعا نبي أمون قومه إلى تقوى ربيهم، وأوصاهم أن يقصروا قصته لكل ابن
وابه، وللصغار والكبار. وروى لهم أنه لما دعا نبيه، وجدته يلبث نداءه كأنه
ريح الشمال يسبقه نسيم طيف عليه. . وعُقِبَ على رضاه نبيه هذا بقوله:
وهكذا إن مال العبد إلى الشر، فلارب مبال إلى الصفح. وما حدث أن
فضي ربي طيبة (أمون) يومه غضباناً، فغضب بتيلاشي بعد برهة قصيرة».

ولم يؤدّ ندي الآسرة المصرية إلى إلغامها النزمه والجمود، وإنما كان نديا
سمحاً لا يرى أهله مانعاً من أن يحوا أعياده بالأناشيد والموسيقى بقل والرقص
أيضاً، إلى جانب ما زالوه من معج دنيوية بريئة، ما استطاعوا سبيلاً إليها.

***

١٢٥
في الموارث

لم تتضمن وثائق العصور المصرية المبكرة قوانين تشريعية صريحة لتقسيم الأثر، وجرى العرف في ذلكぶり القانون. ولدت التطبيقات العملية في شكل التورث على أن كل من الأبين كان يوصي لأولاده بما يراه نافعاً لهم من أملاكه العقارية، بنسب متقاربة ودون حرمان الفتاة أو أبنتها. فإذا كان للزوج ابنه من زوجة متوفاة أو مطلقة، احتفظ لهم بحكم العرق بحقهم في ميراثه إن كانوا صغاراً، أو عهد إليهم به إن بلغوا سن الرشد. وربما جرى الأمر على ذات الوراثة بالنسبة للمنقولات أيضاً لاسيما لصالح البنات. وذهب وثيقة متأخرة الزمن إلى ما هو أبعد من هذا، إذ يفهم منها أنه إذا كان الأب قد قسم أملاكه بينه قبل أن ينجح من زواجه الثاني جاز لهم أن يستأثروا بما وردوه إن لم ينجح هو في إعادة تقسيم الميراث مع إخوتهما برضاهما.

وإذا كان الميراث في الأصل للأبناء، إلا أن الوصايا والهبات امتدت به كذلك إلى الأخوة والأخوات فضلاً على الزوجات. ويبدو أن وفاة العاصل في حياة أبيه لم تمنح من توريث ولده أحياناً.

وذكرت بعض الوثائق قيمة الثلاث نصيباً للزوجة مع الاستفادة من الثلاثين من منفعة الأموال المشتركة بينها وبين زوجها مدى الحياة، حين وفاة هذا الزوج. كما ذكرت أبلى منفعة هذه الأموال المشتركة إلى الزوج فيما لم توفره ورجله قبله، (أو الثلاثين فيها لو سبق لها التصرف في الثلاثة بعدها أو وصية).

فإذا مات أحد الوالدين دون وصية، وأختار الاثنين وأنهما جزءة الميراث دون الإبقاء عليه في وحدة مشتركة، حرص الحكم والقضاء على ألا يجريوا أبناء منهم من نصيب المقبول. وكثيراً ما رد من ولا القضاء والفصل في المنزقات في سياق سير حياتهم: «إذ لم أحكم بين أخين ما يحرم إحداهما من ممتلكات أبيه». أو ما يقول على لسان إحدهم إنه كان يجعل الأخ وإخوتهما يعودون إلى بيوتهم متصالحين بقرار فهم. وورد من نصائح عنك شا شنتى قوله: «لا
تفضل أحد أبنائك على الآخر وانت لا تدرى أيهم سوف يكون عطوفاً بك (أكثر من الآخر). كما ورد من نصائح حكم آخر قوله: "أعدبه بتلكاتك إلى أبنائك من قبل أن يبلغك (الأجل أو الهرم)".

وعهدت الأسرة المصرية في بعض عصورها بأوقافها العقارية، فذات الصبغة الدينية أو الجنائزية منها بحاصية، إلى الإبن الأكبر فيها، ثم جعلت له حق الإشراف على ميراثها كله في عصور أخرى. ولكنها في الخالين لم تكن تسمح له بأن يتصرف فيها بقع تحت إدارته من الميراث والأوقاف لحاسبه الخاص، ولا أن يعتزم لأبنائه من صله دون غيرهم من أفراد العائلة، أو يتنازل عنه لأخرين دون موافقتهم. واسترادت عليه أن يظل إشرافه عليها في يفيد الأسرة أحياء وأمواتا. ولم تنتقل ميزة الإبن الأكبر هذه إلى الإبنة الكبرى، رجا نظراً لما تتطلبه إدارة إملاك وأوقاف الأسرة من جهد، وحتى لا يتسرع شيء منها بصورة ما إلى زوجها. وترتب على هذه الأوضاع نوع من التكافل الأسري والمسؤولية الجماعية للأسرة فيه يختص بالأعير الموقعة ذات الطابع الديني وما تتطلبه أحياناً من التعاقد مع الكهنة وآخرين. وهكذا حرص بعض الأبناء الكبار على أن يندوا في سير حياتهم التي تنشوها على جدران مقابرهم، قولهم: "أعدده ضرحي وأوقافه من ثروتي الخاصة وليس من ممتلكات أبي". وعندما بذلك أجنب كونوا تروياً ويبناو ممتلكاتهم من كد يميزهم ولم يستغلوا فيها ميراث إخوتهم. وعلى وجه الإجابة كثيراً ما قرن رضي الإخوة برضي الأبوين وحسن السمعة في سجل أبناء المصريين عن أخوههم بيكار الإخلاق. وكثيراً أيضاً ما ردوا الواحد منهم عن صدق أو عن إدعاء أنه كان محبوباً من والده، أثراً لدى أمه، حسن الخلق مع أخيه، ووداً لأخته.

وما كان ذلك ليتم لوصح إلا تشيوخ التكافل الأسري والترابي بينهم.

ولا أسس من الاعتراف مع هذا بأوضاع أخرى أجازها بعض العصور المصرية المتاخرة وردتها وثيقة قانونية من القرن الثالث ق.م. ويعمل منها حق الإبن الأكبر في وراثة مثل نصيب أخيه، وابتزاه نصيبه نفسه، وحقه في وراثة من يتوفي من إخوته دون خلف. وحيدعت الوثيقة نصيب البنت.
بالثالث، مع حق الأبناء الكبرى في وراثة أخواتها إذا توفين دون خلف. وتمت في الوقت ذاته عن خارج يمكن أن يتعمل بها بقية الأخوة لتعديل هذه الأوضاع.

و núiما زار المؤرخ ديودور الصقلي مصر أشار بحكمة مواريها وقال عنها: "يلزم الآباء المصريون بتربة أن تعمهم جميعًا لزيادة تعداد السكان. فقد رأوا أن ذلك يزيد عمران البلاد والمن، ولم يعودوا على أن يعتبروا أي ولد ابن غير شرعي، ولو كان ابن جارية مشترى. ومع هذه الإشادة الطيبة، يبدو أن العصور المصرية الأولى لم تنصل على حق الآبن غير الشرعي في الإرث، وربما أبلغ له فين بعد ما هو أقل من نصيب الآبن الشرعي، أو إذا انعدم وجود هذا الآبن الشرعي.

وعلى أية حال فلا يعد أن آباء وأمهات وأخوة شدوونا عن تقاليد الإرث السابقة إن قليلاً وإن كثيراً، ولكن يكفي أن المجتمع كان يرتبع العدالة فيها على وجه العموم، وأن العادة الغالبة في الاحتفاظ للأولاد والبنات بحقوقهم في الإرث كانت تساعد على وضوح وتميز شخصياتهم وفردياتهم الذاتية والمالية، في نطاق الأسرة، وفي مجالات الحياة العامة، إلى حد ما.

***

وتواوت حق الزوجة المصرية القديمة في أمور التملك وحرية التصرف ووراثة الزوج والوصاية على الأبناء القصر، اختلافًا يسيرًا من عصر إلى عصر، وإن صعب تحديد وتعليل مراحل هذا التفاوت بصورة قاطعة نظرًا لقلة مصادره نسبية حتى الآن. ومن أقدم ما يستشهد به في هذا السياق، نصوص "منه" أحد كبار موظفي عهد الملك سنفو في عصر الأسرة الرابعة خلال أواض القرن السابع والعشرين ق. م.

وقد جاء فيها أنه أتى إليه عن أمه السيدة نبسة خسون سفاحه من الأرض (أي ما يربو على الثلاثين فداناً)، بناء على وصية أعدتها لأبنائها، من أجل أن تؤول أملاكها العقارية إلى ذمته. ولم يشرح مين الوصائل التي امتلكت أمه

168
هذه الأرض مقتضاباً، إن كانت قد ورثها عن أحد أبويها، أم حصلت عليها كهدية أو هبة من زوجها عند الاقتران بها، أو بعد زواجه منها، أم كانت قد اشترتها هي بنفسها، أو اشترت بعضها من عائدة استغلالة لبعضها الآخر، كما لم يفصح عياً أوصت أنه بلهابانها الآخرين.

ولكن بحسب نصوص مثناً ملتبست عليه من أنها، أي السيدة نبسة، تمتعت باكمال الشخصية القانونية، من حيث أهلية تملك العقار وحق التصرف فيه، وإبرام الوصايا وإنجازها وفقاً لخبرتها ومشتبهاها الخاصة في الحياة وبعد الالتمات، وقد تكررت الشواهد فيهما بعد على أمثالها. وتلك ميزة يمكن أن تقرر بما ورد في عصور نالية واستشهدنا به (من قبل) من حق المرأة في التبني وامتلاك الأرقاء وتحريرهم، وظهور في عقود الزواج والإعاقة كثرية متعاقد، شأنها في ذلك شأن الرجال. ولم تكن أملاكها تحت وصاية زوجها، ولم تختل في الفضيحة بأمالها.

وإذا كانت أم مثنا قد مارست مطلق التصرف فيها أوصت به لأبائها من حر مالها، ومالاتها بطبيعة الحال أمهات كثيرات كأنا ذكرنا، فقد حرصت مصرية أخرى في فترة من القرن الثاني عشر ق. م، على أن تؤكد ما لها من مطلق الرأي وحرية الاختيار فيما تمنعه وليس فقط فيما تمنحه أو توجبها مما لها من دمالة متميزة عن دمة زوجها ولو في نطاق أملاكها المشتركة. وهكذا أثبتت في بلاغ وصيتها ما تقول فيه: «هنا أنا إذا قد طلعت في السن وهو لا يعتن به، فصمن بادر بهم ووضع يده في يدي فساعته من أمالكي، ومن لا يفعل ذلك فلن أعطيه شيئاً. وهذه هي أسباب الأبناء الذين يشتركون في الثلاث الخاص بي، وكذا ما يخصهم من تركا الثلاثين المروثة عن والدهم». وكان في كل هذا ما ميز وضع المرأة المصرية عنها جرت عليه شعور قديمة أخرى من تقدير حرية الأشيائي في التصرف العقيري، إلا أن يكون تصرفها تحت ولاية وإجازة غيرها، زوجها كان أم أنعتنا، أم إينا أكبر.

وأبدنت وثيقة قضائية مصرية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، عن أنه كان بوسع المرأة من الوراثة أن تدير الحقول الزراعية المروثة أو جزءاً منها

(م 9 - الأسرة)
رضي شركائها، أو كوصية عليهم، إلا إذا نازعها في هذا الحق أحدهم رجلاً كان أو أرضاً. وكان للأنثى حق التقاضي باسمها إلا إذا أتى عنها فيها ولدها أكبر، وما يستبع ذلك من مولها أمام القضاء كمدفوع وشاهدة، واعتبارها مسؤولة ومتفقة لأحكامه وخاضعة لعقوباته، وذلك إلى جانب ما كان لها من أهلية إيجابية في الحياة اليومية قد تستغلها أو لا تستغلها، لعقد العقود والقرضين، وعمليات البيع والشراء والتاجر والضمان حين الضرورة دون الحاجة إلى ولاية وصي أو إتاعة وسيط لازم.

ولدت بعض الوثائق المصرية القديمة بالثالغ على أهلية الأم للولاية على أبنائها القصر، لم يكن لها ولد بالغ يرعاها ويرعاه وترتب له عليهم ولاية أبيه ومسلطاته. وإن كانت تلك مصرية أخرى في الوقت ذاته على أبنائهم الزوج أحياناً، إلى تعيين كفيل يعود إلى إبراعها أولاده الصغار، إذا أحس بقرب أجنده. أو تعيين وصي على تركه وأفراد أسرته يرعاها ويرعاهم ويتعامل كلا منهم وفقاً لسته.

على أنه يبدو أن مثل هذا الوصي الخارجي كان شأنه شأن ناظر الوقف فيها بعد، فلا يحظى بثقة من يقعون تحت وصايته. ولدت على هذا شكايتان اعتراض في إحداهما كناة ابن النهpal المدعو وسر، على وصاية سبك حولته وقع بتزور أمام القضاء في صحة سند الوصاية نفسه، وطلب بإسنادها إليه، وأجاب القضاء إلى طلب. وقدمت الشكوية الثانية زوجة إلى روح زوجتها في قبر، وتصرفتي فيها من عدم وفاء الوصي بالتزامه لصالح ابنتها.

وعلى أية حال فلم يخل اكتمال الأهلية القانونية للزوجة دون أن يلحق اسمها باسم زوجها في الوثائق وأمام المحاكم فيقال عنها فلانة حرم فلان.

وليس من المستبعد رد بعض ما تميزت به المرأة المصرية القديمة نسبياً عنصرها من نساء المجتمعات المتحضرة الأخرى من أهلية الجبر والاداء، إلى الفطرة المصرية السليمة ونظرتها إلى المرأة أساساً كأنسان، بكرا كانت أم زوجة، أما كانت أم عاقراً، واعتبارها مثيرة في مقابل «سي» أي سيدة في 130.
مقابل رجل، وفي مقابلة "نب"، أُريت بيت، في مقابلة ولي الأمر. وهي فصيلة زكترًا طبيعة تكوين المجتمع المصرى الزراعى القديم، المستقر الآن الذي أتاح للمرأة أن تشارك بنصيبها الإيجابى في عملية الإنتاج، ما استطاعت أو ما دعتها الضرورة. وأن تكون شريكاً بالتالي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي اعتمد نجاحها على أساس من قيم العدالة المستقرة وإعطاء كل ذي حق حقه، ولو من الناحية النظرية على أقل تقدير، ودون استبعاد بعض نواحيها السلبية أحياناً.

بيد أنه إذا ما صحت أفضلية البيئات الزراعية حقاً بالنسبة للمرأة على ما عداها من البيئات الرعوية والصحراوية والجبيلية القديمة التي تشتهر في مكانة المرأة، مثل البيئة الإغريقية أو العربية القديمة التي حدثت من حق المرأة في أمور التملك والتصريف والأثر العقارى وإبرام العقود وإدارة الأعمال المهمة والمؤثر أمام القضاء، إلا تحت وصاية أو كفالة الأب أو الآخ أو الزوج أو أقرب الأقرباء من الذكور، فإنه يتبقى للمرأة المصرية القديمة في مجتمعها الزراعى والتكامل النشأة ما تميزته به ك بذلك عن أفضل مثيلاتها في مجتمعات زراعية عربية أخرى كرمت المرأة فعلاً وعينت بحقوقها، ومنها المجتمع العراقي القديم على وجه أخص.

فعل الرغم مما وفرته التشريعات الإبداعية العراقية للمرأة من أهلية البيع والشراء والإدانة والشهادة وإبرام الأتفاقيات بشأنها في ذلك شأن المرأة المصرية، لاسيما حين يكون الطرف الآخر مرأة، إلا أن القيادة عليها كانت تتنقل كاملة من أبيها أو أختها قبل الزواج إلى زوجها بعده. ولم يكن لها حق في اختيار الزوج أو حق تنفيذها منه. لم يمكن لها حين وقوع الظروف باختيار الزوج إلا استمرار مثبوت وتعييذ مناسب وما تربي بها أولادها الصغار، دون أن يكون لها أن ترتيب أبها أو زوجها في أملاك عقارية (إلا إذا كانت من بري الكاهنات). وإذا ورثت أحدهما بحكم وضعها الخاص استغلت منه ما يعادل ثلث نصيب أخيها دون أن يحق لها بيعه أو استخدامه في سداد ديون شخص آخر، وبقيت الرقية لإخوتها ليبرلوها إن لم يكن لها أبناء ذكور.

131
معاملة الأتباع

استحببت أغلب الأسر المصرية الثرية سماحة المعاملة مع أتباعها وخدمتها. وربما كان لذلك بعض الأثر المحمود في تهديب حواشي أبنائها ورقة طباعهم نسبيًا. فكان من ملاك الأراضي من يسمح لرقيقه بالاجتماع عند غيره لفترات معينة، وسمح لهم بأن يتسلموا أجورهم منه بأنفسهم، أو يشترط لهم على المستأجر ألا يرغبهم على العمل في يوم يشتند حر. ولم يأت بعض المصريين إقرار حق الأجراء وأولبائهم الأقربي في الاحتجاج على تكليفهم غير ما استوّجرا له.

وأوصى الحكيم عن خ شا شنقي ولده فيه أووصاه بقوله: «اسمح لن عمل ما معهد به إليه بأن يرفع صوته». ولو أنه لم يرى من إثارة النفع المتبادل حين قال: "أعط الشغال رفيعًا تأخذ ريفين من (شعل) كتفه". وقال آخرون: إذا عبرت (النهار) بصينه فالأجر له أجرها وزيدة. وكافة الصانع يخدمك».

ودلت بعض يوميات العمل والعمال على أن المعاملة كانت تتقاضى أحيانا، نفس أجر العامل، وتتمتع مثل إجازاته في الأعياد والضرورات والأمراض، وتزيد عنه بأعدادها الأثنتى.

ولستا نشك مرة أخرى في أن أسرا وجماعات ثرية تجاوزت مثل هذه السماحة، وربما انقلب منا أحيانًا إلى ضدها. وكثرت هيئة المناصر القديمة التي صورت الخدم والأتباع والأجراء بل ومستأجرين أحيانًا ممدين أرضا يضرون بالعصي. ولأن يكون تقاليد المجتمع المصري لم تنمسك بال التواصل الحادة التي فرضتها بعض المجتمعات القديمة الأخرى فيها بين مواطنيها وبين أرقتها، فلم تذهب مذهب الإغريق والرومان مثلًا في اعتبار الرقيق متاعًا يجل لصاحبهم تدميره وإهالكه.

وليس أدل على حسن الأثر الذي كان يمكن أن تتركه سماحة الأسرة...
الخيرة مع أتباعها في نفس أبنائها أحياناً، من أن نجد شاباً مصرياً يرسل أباً
قائلاً له: أرجو أن تكتب إلى عن حالك وأحوال خدمك وكل ما هم فيه،
لأن قلبك مشتاق إليهم كثيراً جداً. ورجاء على الرغبة في حفظ كرامته التابع،
قال عنص شا شنقى لولده: لا تقترب من زوجة تابعك.

وتعدى رفق الأوساط المثقفة بالأتباع إلى الرفق بالحيوانات الأليفة أحياناً،
بحيث خصص أحد أطباء الدولة الوسطى خطرةً طبياً لعلاج عيون وأسنان
العجل والكلاب. وأطلق بعض المتفرجين أسياطًا تدل على كلامهم مثل نب
أي السيد على نحو ما أطلق عليه الآن اسم ركس أي ملك أو لورد. وبلغ من
تأثير مثل هذا الرفق على أخلاقيات بعض الأطفال، أن روت قصة مصرية عن
غلام، فيها أن العرافات أنثرت به سفيرة بمثابة الفن، وأن مقتله قد يتأتي
بسبب كله، إن لم يكن من جراء مساح أو نعش. فلا أرادت خططته أن تقتل
الكلب إنها، لما يجعلها أن يصيبه من شر، أي واستمتع به، وتترك أمره وأمر
كلبها للأقدار، وقال: يبحث الإله روع لن أدع أحداً يقتل كلب الذي ربيت منذ
أن كان جروها. وكما كان المصري التقليدي يذكر في دفاعه الإثنياري أمام قضية
الأخرة أنه لم يلحق ضرراً بإنسان، كان يضني كذلك أحياناً أنه لم يعمل على
إيذاء حيوان.

وكان من الطبيعي أن يختلف حال الأسر الفقيرة عن حال الأسر الغنية فيها
تربت على الأوضاع والقيم السابقة من تأثير في نفسيات الأبناء وتكوين
أخلاقاتها. ففي الأسر الفقيرة لم يكن الأبناء يتأثرون بمعاملتهم أسرهم لأتباعها
وإنما هم يتأثرون بمعاملة الدولة لأبورهم. وفيها لم يكن الفقر يحرم الولدان من
بعض متع الحياة وحدها، وإنما كان يحرمهم كذلك من بعض الصحة أحياناً.
وفيها كان الولدان يشاركون آباءهم فيها بضطربون فيه من مشاق الدنيا منذ
سنهم المبكرة. فيجدون معهم في سبيل تحصيل الكفاح، ويعززان معهم
إلى أعمال الفلاحة والصناعة بينين وبنات. وإذا تخطروا طفولتهم المبكرة وفارقوا
مرحها البريء المحدود، وبدعوا الله بعرائض العلم والفن والبصوص
اللعب في الأزقة، كانوا يصرفون كأمثلهم حتى الآن إلى ما ينسبهم من
أعمال الزراعة، كاقتلاع الحشائش، ويذر الحب، وجمع سنابل الغلال، والتقاط ما يتساقط منها حين الخصام، وذوب الطيور عن كروم العنب بالعصي الصغيرة والمقالح، سواء في أراضي آبائهم الصغيرة المحدودة، أم في حقول أخرى يمرون على العمل فيها بأجر يسير. وأبناء الأحياء الشعبية في المدن كانوا يتجهون إلى ما يشبه هذا الاتجاه فيعمل الأبناء غالباً صيامًا في حرف آبائهم صناعاً كانوا أو صيادين أو بائعين (ولكن دون التزام مفروض باحتراف هذه المهنة). وقد تضطر بعض البنات الصغار أحياناً إلى العمل في مصانع الغزل والنسيج والغسيل وخدمة البيوت تحت إشراف النسوة أو تحت إشراف الرجال. وغالبًا ما صور هؤلاء حفاة وشبه عراة إلا من الناحية من النية.

ومن العجيب أنه على الرغم مما ألحّ أفراد الأسر المصرية القليلة من عنت الدنيا، وعلى الرغم من أنهم كانوا يستغلون بدنياً أكثر من غيرهم في تنفيذ مشاريع الدولة وخدمة الحكام، إلا أن تكوينهم الوثدي لم يختلف كثيراً عن التكوين الوجداني المعتدل لمواطنين من الطبقتين العليا والوسطى. فالأنفسية البسيطة الراضية والروح الصبور القائمة، والتدني الظريف السمح، والطابع الفكاهة المرحة، كل أولئك كان يتمثل في كثير من جماهير الفلاحين والرعية والصناع والعمال على نحو ما تمثل في كثير من كانوا يسودونهم ويتناجونهم من الطبقات الأخرى.

وتوحي النصوص الباقية من مواويل الكادحين علي الأرض وهم يحرثوها ويذرو الحبوب فيها، وينقلون غلالها إلى الصوامع، ويستقبلون تبشير الفيضان عليها، كما توجي أهالي الرعية وحاملي المفهت، بأن الله شاء أن يعوضهم بروحهم الصبورة المتفائلة عن بعض ما حرمهم من نعيم الدنيا ومتاعها.

فقد يعمل المزارعون في حرب الأرض منذ صباحهم الباكر، فيهنون على أنفسهم مشقة العمل بروح راضية، ويرددون ما معناه:
اليوم زين والأبدان ريانة
والخيران نهر والسماعي هوانا

ويتقل آخرون غرائز الغلال ويقولون يومهم فيضمنون شكايتهم الحفية من مشقة العمل المتواصل في موار يلحون به كيهم ويقولون فيه ما يعني:

نقضى النهار نقل القمم والغابة
والشنون فاضت والأكواب نبتت
ووسقتنا المراكب وقاومت الغلة من برَّة
وعلد ما تعبرُ

ويخرج أربعة من الخدم يحملون سيدهم في محاية فيخدعون أنفسهم عن ثقل ما حملوا به أو يتهكمون على ثقل ما حملوا به ويقولون: يا أحفاها وهي ملاحة عنها وهي فارغة. ويشتاق بعض الأتباع في إعداد أمنة سيدهم ووسائل معته، فيخدعون أنفسهم عن حرمانهم من أمثالها، بإداع المودة بينهم وبين سيدهم حيث يتحدثون عنه باسم تدليل كأنما ارتفعت الكلفة بينهم وبينهم ويتحدث أتباع الوزير بباح حبوب عنه باسم إبي، ويتحدث أتباع آخرون عن سيدهم الوزير كي يحن على باسم مياع، ويتحدث أتباع نفر

سهم بباح عنه باسم ويشى.

وكما سلف القول يمكن أن ترد الروح الراضية القائمة السحية لغالبة جاهير الشعب المصرى إلى عوامل عدة ومنها: أكنهم تطيعوا تلقائياً وربما عن غير يوعى، بطبع بينهم الهادئة النرامية التي قالت فيها مظاهر الصخب العنف والتقلب الشديد. وأنه شاع في مجتمعهم وازع دينى أو إنسان وأخلاقي أصيل دفع ذوى القلوب الرحيمة من السادة والرؤساء إلى التخفيف عن مؤسسهم وأجرائهم في بالرقة، إما طمعاً في حسن السمعة أو رغبة في رضى الأرباب وأمالاً في جزاء الآخرة. وفي نوذ من ناشق التعبير عن هذا

135
الوازع الإنسان كتب رجل أشرف على ضيغة أخيه عشرين عاماً، يقول: "لم أود شخصاً فيها لأنه وقع تحت طائلتي، ولم استعيد واحداً من أهلها، وكتبت إذا جادلت أحدهم أرضيته. ولم يحدث إطلاقاً أن تمت غضابةً على فرد منهم".

وكتب ما رد ولاء الأقاليم في نصوصهم ما يفيد اعترافهم بمسئوليتهم إزاء فقراء الناس وجوب معاونتهم على تحمل نكبات الحياة، وأن كلا منهم كان يعتبر نفسه أباً للجميع وزوجاً للأم وعائلاً لن لا عائل له.

وفي سنوات القحط الطارئة كثيراً ما عبر خيار حكام الأقاليم عن مسؤولياتهم وكرهم بها يقول: "وعندما شحت أقوات البلاد أخذت على بلدى أرادب وإيالات من الغالل، وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته. وأعطت منها الأمول ولودها". أو ما يقول: "وعندما تعاقبت سنوات المجاعة ...، منحت الأرامل كا منحت ذات البعل. ولم أميز كبيرا على صغير فيها أعطيته". وقد يضمن كل مسئول دفاعه الإكباري عن نفسه في مواجهة حساب الآخرة ما يقول فيه "لم أدع أحداً يتضور جوعاً"، و"لم أتسبب في بكاء إنسان"، "ولم أسبب الثعاسة لأي إنسان"، "ولم أبلغ ضد خادم سرا إلى سيده"، "ولم أحرض خادما على عصيان مولاه". وقد يقول في نصوص مقتبسة "فلعل ما يحب الناس ويرضي الأرباب"، "وكتبت حنم لأهل ضيعي"، "ولم ألفظ بنيمة لدى صاحب سلطان ضد أي إنسان"، "وياما كان في أمثال هذه التعبيرات من مغالاة، إلا أننا لا نخلو في الوقت نفسه من دلالة على رغبة الكبرى في الظهور تظهر الأخذين بتعاليم الدين والتعصين على اكتساب السمعة الطيبة بين المواطنين.

وتشاع إلى جانب هذا الوازع الدين ووازع اجتماعي كريم استحبه بعض الحكيمة والرؤساء وأرادوا أن يخففوا به مزات الحقد والحرمان في نفس الفقراء، ويتجنبا به ما تتركه الحقد عادة من النواء في الطبع والوجدان. وصور يباح حوتب لولده حكمة هذا الوازع، في صورة عملية منسوبة، فقال له: جز نغمة فإن النعم لا تكمل من دونهم وهو قول يقرأ ما تقدم

الاستشهاد به من أقوال الحكيم عن شايمي وغيره.

136
ولا يعني ذلك طبيعة الحال مثلية أغنياء الصربيين القدماء المطلقة في معاملة الأجراء والأتباع، وإنما هي مثلية نسبية كانت مستحقة فحسب، قد يتعمدها بعض السراة عن إخلاص، بينما يتفاوت عنها بعض آخر، وقد يتظاهر بها بعض ثالث دون اقتناع.

***

ومن وجه آخر سرت بين أخبار الكادحين وبعضهم البعض روح متوارثة أو مكتسبة من التراحم الفئوى والتعاطف الفطرى، يسرت عليهم مشاكل الحياة وأضفت عليهم حظًا لا يأس به من القناعة وهدوء النفس وسلامة الوجدان. وعبرت الصور الصورية القديمة عن هذه الروح بلفظ اعتداد أخبار الأتباع والصناع أن ينادوا بعضهم بعضا بها. فأنزل القرآن الكريم إذا طلب مساعدة زميله في شد ساق الذبيحة، قال له «خذ عليك يا خويها، والسجاج الطبيب إذا نادى زميله قال لها «أسرعي يا أختي»، وذلك فيها يبدو نوع من أخوة العمل وأخوة الإنسانية التي شجعتها المسيحية فيها بعد ركائزها الإسلامية. وإذا تخلى أخوه عن ألفاظ الأخوة نادى زميله يقوله «باللمس معايا»، و«يا زميلي» وهذه يتخاطب بها الطفل وزميله، وكذا الجزار والراعي والمزارع والصناع، بعضهم مع بعض.

وإذا فرغ أحد هم من عمله شجعه زميله الودود بقوله «شيء بديع للغاية». وإذا وعده أن يشاركه العمل قال له «سأعمل ما يرضيك». ولازالت هذه الروح الودودة قائمة إلى الآن إلى حد ما.

ولا يبعد أن حياة أولئك الكادحين في أسرهم ومع أولادهم كانت على نحو مشابه من السباحة والتعاطف في غالب أمرها، يقل فيها الكبت والتعلق، وإن لم تخل من التفشي والحرمان.

***

137
الفصل العاشر
المرأة في المجتمع والحياة العامة

لم يأت المجتمع المصري القديم أن يتيح للآثري ممارسة نشاطها المناسب لها في بيئة خاصة وفي مجريات بعض الشؤون الدينية والدينية في الحياة العامة، طالما تمتعت بالكفاءة الشخصية وظهرت من الثقافة بنصيب يناسب عصرها وتقاليده.

وعلى الرغم من أن مجالات التعليم الكتابي أو المدرسي كانت من شأن الأولاد أساساً، إلا أنه تبين من وثائق فردية قدمة متباعدة أن قلة من المصريات تعلمن الكتابة والقراءة (في بيوتهم) واتقنت بها، كما تذوقن الأدب وتراسلنه بها. فكانت منهن بضعة قليلة حملن لقب الكاتبة (ربما عن وراثة لأبائهن في المهنة ذاتها)، ومن تولت كتابة رسائل الملكة، ومن شاركت زوجها الأمير في كتاباته وقراءاته. وإن اعترفت بأنها بقيت دونه في تجريد الخط واتقان الأسلوب.

ومنهن من تولت تنفيذ فتية من الأجنبي باسم البلاط الملكي في عصر الرعاسة، ومن تلقت بلقب رئيسة الحكيمات. ومن نسب إليها الاشتراك في بعض شؤون القضاء وبعض شؤون الإشراف (حينها احترمت أركان الملكية)
المجتمع في أواخر عصور الدولة القديمة). وثمة احتمال بقيم دار وثائق في
دندرة خلال عصر الأسرة الحادية عشرة غذت محتوياتها سيئة مثفقة ثم
رعتها أبنتها من بعدها، وخصصت لها مشرفاً تنظمها ويصوم ذخائرها.
وتضمنت بعض مخطوطات عصر الرعاسة رسائل إنشائية لإنسان من
أواسط الناس كن يتبادلاها مع بعضهم البعض، ويفضن في سياقها في ترديد
الأمثال وآساليب الوصف. وزارت إحذهن مدينة منف ذات مرة، وراسلت
صديقة لها تسكن في مدينة طيبة (الأقصر). فكتبت لها بأسلوب طريق عن
روعة هذه المدينة (منف)، وشبهها بغادة شقراء، تكينة عن أسوارها الشهباء
وبيانها البيضاء. ووصفتها لها غرائدها التأنيمات وما أثره من أكاليل الزهور
وغصنان النبات، وصورت لها رحاء المدينة، ودللت على رقي الحياة فيها بأن
البدو الأخشب إذا دخلها تحول إلى دنيا مرفه، يتضح: بالزروت العطرة
وتعمل بالزهور. ثم وصفت لها مواكب الجند، وهم يشكون طرقات المدينة
بين التهيل ودقات الطبول.

ونسب المندين المصريون خلايا العلم إلى بعض مبدعاتهم الإله.
ذاعتوا المعونة "مشتات" رامعة للكتابة والكتاب، وتناولوا أنها كانت أول من
حسب وخط بالقلم (إلى جانب راعى العلم والكتابة محمودة). كما نسبوا إلى
المعونة "إيما" شيئا من العلم بالكتابة والحساب أيضاً، وذكروا أنها قامت
"أرشداني" أي إلى سبيل المعرفة، وأنها انتقدت معه فيما بعد على إبداع خط
مختصر جديد (وهو الخط الجيتو). وجسد رمز العدالة الحفاق في مصر
القديمة على هيئة معدودة أخرى وهي "ماموت"، وبقى الرمز إلى العدالة بانى
كذلك في العصر الحديث ربما على أساس ثابت اتسمها على الأقل في اللغات
اللاتينية والفرنسية والألمانية والعربية أيضاً. وفي أحسن حالاتها اعتبرت
ماموت قيمة خلقية عليا ترتبط بالفضيلة والصماقة والإنصاف والذمة
والضمير، والتوازن العالمي، وتنسب إلى الإله الأكبر ذلك، وعلى أنها فأها
الأرمان وكثير الناس، وبدأ ينعمون بهم، وفضلهم يستقر نظام
الكون والمجتمع.

١٤٢
وأسهمت بعض كبريات الأميرات المصريات في مجريات الحكم والسياسة
فنجمت حيناً وفشتين أحياناً. وبلغت العرش، أو على الأقل ورثت العرش،
منهن خمس أميرات، وهن: كندة كاوس في نهاية الأسرة الرابعة، ونرت
伊قر في نهاية الأسرة السادسة، وسوك كفرن يرع في نهاية الأسرة الثانية
عشرة، ثم حاتشسوم في منتصف الأسرة الثامنة عشرة، وتاورسارة في نهاية
الأسرة العشرين. فضلاً على كليوباترا الشهيرة وإن تكن متأخرة العهد
بطلمية الأصل. وفشلت أغلب تجارب هؤلاء الأميرات أو الملكات في سياسة
أمور الدولة، فيها الملكة حاتشسوم التي احتل تصورها في سمات
الرجال واتصنعت بعزائمهم، وسيطرت على العرش الثين وعشرين عاماً،
تسعة مشتركة وثلاثة عشر متفردة.

واستهرت إلى جانب هاته الوازاحات للعرش أميرات أخريات عظيمة
باشرت السلطة من وراء ستارة إلى جانب أزواجهن من كبار الملوكي.
وقد بدأ نماذج شهيرة مترفقة منذ عصر الأسرة الأولى التي برزت فيها
كل من الملكتين "رنيت حوزب"، و "مريت نيت". وكانتا من أميرات الدلالة
ودعت دواعي حسن السياسة زوجهما إلى السماح لها بمكانة خاصة.
وتكررت منهما من حين إلى آخر.

ويراعية الإيجاز يكفى الترويب هنا بيعة الأسرة الثامنة عشرة "بتي شرية"،
التي ولدت من أبوري من غير فئة الأمراء أو الملوكي ولكنها تزعت في نصوص
حفيدها الملك أميس بلقب الغالبة أو العارفة تقديرًا لخصائص رأيها وطول
خبرتها. وشبيها ابنتها أو زوجة ابنها الملكة "إي قح حوزب" (وحرفياً إعج
حوزب) التي ساعدت على تحقيق وحدة الصف الداخلي وجمع كلمة الجيش بعد
وفاة والدها كامس. وعنده انقلال العرش إلى أخيه أميس إبان مراحل الكفاح
الوطني لإجلاء الهكسوس من أرض مصر. وقد بلغ من شهرتها الخارجية أن
جاجملتها بعض أجزاء البحر المتوسط ومنها جزيرة كريت، أو جامعت ابنها الملك
أميس في شخصها، وخلعت عليها اللقب التشريفي "سيدة الجزيرة". وعائلتها
في علو الملكة إلى حد ما الملكة "أميس نوفراري" التي رأى أهل طيبة في مناقبها

143
مناقب ولدها الملك منحوب الأول ما دعاهم إلى تقديرها بعد وفاتها واعتبارها من الأولويات. وتلتنه بعد عدة أجيال الملكة التي أسلفنا من أمرها اختيار الملك منحوب الثالث لها من أسرة مصري خارج أسرته الملكة لتكون السيدة الأولى في قصره وفضلها على من سواها من زوجاته. وكان لها من قوة الشخصية ودلال الأشياء ما سنتها به، بل ورسلها ملوك الشرق وأمروهم أنها من تقلوها تقارباً إلى شخصها وإلى شخص زوجها. ثم الملكة نفبت رائعة الجمال زوجة أخواتهن إلى شاركتها حياة التدويف وناصرت معه ديانة أتون ودعوة الوحدانية. ومن قبل ذلك ثبت بعض النصوص والملابسات على احتمال قيام بعض الملكات بوصيان على أبنائهن الملك الذين ورثوا العرش وهم في سن الطفولة، ومنهن أم الملك بيبى الثاني في فترة من القرن 23ق م. وشابتها جزئياً فيها بعد سيدة من القرن 21ق م. تولت الوصية على ولدها أو حندها الصغير في حكم إقليم "أسيوط".

***

وإذا تجاوزنا عن تبع أحوال من ألمهن ضرورات الحياة القديمة من النساء الفقراء بالسعى في سبيل تحصيل الرزق ومعاونة الأب أو الزوج، في الأسواق المحلية وفي أعمال الزراعة والصناعة الخفيفة، وفي الخدمة بيوت الأثرياء، أو في العمل قابلات ومرضعات وحاضنات ومربيات أبناء في الجنائز وحفلات القرابين، فشأن ما يذكر لبعض نساء الطباق الأثرية والوسطى في مجالات الحياة المدينة والدينية المناسبة لظروفهن. فقد شاركت بعضهن أزواجهن في الإشراف على أعمالهم الخاصة. وتولت كبرياتهن مناصب شريفة وعملية في القصور الملكية، واتخاذ ألقاب الوصيفات ومعارف الملك، والملفخات على أمور زيتهما وزية الملكات.

ويبدو أن البروزات من حاتكات الثياب ومرجان الشعر والشمسيات بفن التجميل مشهورة كالعادة بحب التداخل في الأسر الغنية والحرص على الاستفادة منها لصالح أمثله وجاهز أبياتهم. وهي ظاهرة عبر عنها الحكم.
عنخ شاشنشفي في قوله مع شيء من التهكم (نِيْ لأَعْجَلِ) ليس لي آم مباشطة تحقق الخير من
إجل).

وتفاخرت أغلب سيدات الطبقة الوسطى بالانساب إلى كهانة المعبد
وخدمتها والاشتراك في منافاتها وأعبادها الدينية، باعتبارهن كاهنات أو
منشذات وعازفات ومغنيات، سواء عن هواية أو عن احتراف. وتتوفر لبعض
فرق المنشذات حينذاك صيت واسع، لاسيما بالنسبة لفرق منشذات مدينتي
منف وطيبة، ومنشذات القصور الملكية. وتكفلت بضعة معاهد صغيرة
بتعليم الفتيات الرقص الدين والرقص الترقيعي، وأشرف عليها أحيانا رجال
مختصرون. ونسبت رعاية الفنون الجمالية والرقص والغنم إلى العبودية
حتحور، كما نسبت رعاية الموسيقى إلى ولدها المقدس إحي.

ومن أرفع مناصب الكهنوت المصري التي اختصت بها بعض الملكات
وشهيرات الأميرات في الدولة الحديثة والعصور المتأخرة منصب وحرم آمون
المقدس، وقد بدأ منصب تشرفية ثم جمع بين الصبغة الدينية وبين النفوذ
الإداري الأعلى في معبد الكرنك ومدينة طيبة. وقد أثرنا له ترجمة حرم آمون
المقدس التي تعني من تلوذ بالله وتكسب شيئا من حمه وترف على
مقدساته وكاهنانه - عوضاً عن ترجمته الشائعة في بعض المؤلفات الأجنبية
والعربية الحديثة، وهي زوجة الإله آمون - وذلك أنه كان ما اختلفت به الديانة
المصرية القديمة عن غيرها من الديانات الوضعية الأخرى المعاصرة لها أنها لم
تأخذ بمثال المدول الحربي هذا اللقب، وهو المدول الذي أدى في أمم أخرى
شرقية وغربية إلى ما سمي اصطلاحاً باسم البايخ الديني، ويقتضى كأن
الكاهنة العظمى تهب نفسها وطرافها للإله أو الملك أو كلا الكهان المثل للإله
مرة في العام، على اعتبار أنها تضحي بذلك بأعز ما تملك لإرضاء ربها، ومن
أجل خير شعوبها وضمان خصوبة أرضه وخصوبة الأرحام بين أهله وهو ما لم
يحدث مثله في مصر.

وعلى الجملة، فقد أباح المجتمع المصري القدمى نشاط المرأة في ناسبها
من مجالات الحياة الخاصة والعامة وشغفها المدينة والدينية، وفيها ناسب قيمه

(م 10 - الأسرة)
هو وتقاليده وعلاقته، إلى جانب دورها الرئيسي في رعاية بيتها وزوجها، وتربية صغارها. كما أتاح لها من صور المساواة أو العدالة الاجتماعية ما تميزت به عن أوضاع الإناث في كثير من المجتمعات القديمة الأخرى المعاصرة لها في الشرق والغرب على حد سواء. وقد بلغ الأمر بكتاب إغريقي أو من تألف من بداية القرن الثاني عشر أن رد مكانة المرأة في مصر القديمة إلى إرادة دينية قديمة، ونسب إلى المعبودة إسناة (إيزيس) في سياق مدينه لها أنها هي التي جعلت أهمية المرأة معادلة لأهمية الرجل.

***

تم بحمد الله
اللوحات
2 - 3: من صور التعبير بأوضاع اليدين عن العواطف المتبادلة بين الزوجين
4 - توت عنخ آمون وزوجته في خيمة القصر - يادها النحية وتهديه الزهور.
وتطعمها بيدها.
6 - من صور الترابط الأسري.
من محاولات التقرب بين الآثيين والعدل بينهما...
جلسة أسرية للملك آخناتون وزوجته نفروتيتي وبناتها المدللات.
10 - من تعاطف الأب ووالدته والبنات
11 - في حنان يضمن الأب ولده على حجره، والابن وأمه يتنا حبان.
من تعبيرات روابط الأسرة.
14 - من صور الارضاع في الأسر النحيرية.
16 - جلسة المرضعة في الأسر الوسطى والعادية.
17 - دمية العروس مشكلة

18 - ثلاثة من أربعة أفراد في فرقة رقصة

(م 11 - الأسرة)
19 - من هو الصغار
22: من رفاة الشاب في أسرة الوزير رعس (من ق 14 ق. م.)
رشاقة الفتيات في أسرة الوزير.
25 - نفرة (الجميلة) من القرن 27 ق. م.
٢٦ - ٢٧ : من أزياء وزيتة النساء في الدولة القديمة.
28 - زيان من عصر الرعامسة للمعبودة إبسة والملكة نفرتاري.
من أزياء النساء في الدولة الحديثة
31 - عقدة أخرى في شعر الملكة كاوية (منذ نهاية القرن 11 ق.م).
33 - مسات أخرجه في الزينة (من الدولة الحديثة).
35 - من محافل الطعام والشراب لمهرات النساء (في الدولة الحديثة).

36 - حزام وسط، وسوار للقدم (خلخال) للأميرة ملحة (من الذهب والأمتيست - من القرن 19 م).
37- إكليل رأس للملكة سات حتحور أونة (من الذهب واللازورد والكارنيليان. من القرن 19 ق م).
فلائد وأساور للأميرة خنومية (من الذهب والكاريانيان واللازورد والغيروز - من أواخر ق ۲۰ ق م)
39 - مراة فضية بقبض فاخر أنيقة للملكة سات حتيحور أونة من القرن 19 ق. م.

40 - حق خشبي مرخر وصلت بالعاج للدهان والعطور من القرن 14 ق. م.
42 - أناقة شاب مثقف من الدولة القديمة
٤٣ : من مظاهر الرجولة في الدولة القديمة (ق ٢٧ - ٢٦ ق)
44 - أزياء من الدولة الحديثة
٤٥ - جارية ت مصر الجمّة
٤٦ : من نساء الطبقة العاملة في الدولة القديمة
47 - من عاملات النسيج (في الدولة الوسطى)
48 - مشاركة نسائية في الأحزان من مختلف الأعمار.
49 - الملكة نفرتيتي تقبل زوجها الملك أخناتون خلال نزهة مرح.

50 - مباراة في الشطرنج للملك رمسيس الثالث وإحدى بناته.

51 - مصرية مثقفة تجلد أدوات الكتابة.
الملكة حاتشيسوت في أبها الملك
وفي هيئة الأسد الوادع ٥٩
54 - الملكة تي في شخصيتها المحكمة. (ق. 14 ق. م.)
الملكة نفرتيتي (؟) في تأمل وشرود.
بعوث مختارة


الأرض والقمح في مصر الفرعونية - مجلة الجماعة المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة 1972 - ص 17 - 79.


المرأة في النصوص والأثار العربية القديمة - الكويت 1985.


Amir, M., el., A Family Archive from Thebes, Cairo 1959.; “Mono gamy, Polygamy, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egypt”, BIFAO, 62, 103f.


Simpson, W. K., "Polygamy in Egypt in the Middle Kingdom", *JEA*, 60, 1974, 100-105.


Tanner, R., 'Untersuchungen zum Ehe-und erbrechenden Stellung der Frau in pharaonischen Aegypten', *Klio*, 49, 1967, 5-37


مطبوع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الإيداع بدار الكتب 1988/4645

ISBN 999 - 1811 - 9
إن الكثير من سمات الحضارة المصرية على قدماهما في مجتمعنا المعاصر، ولا سيما في السلوكيات الاجتماعية والقيم الأسرية، ولحياة الأسرة نصيب وافر من الصلة باضطلاعها. فيها توُضّعت عليه من عادات وتفاعلات نافعة أو ضارة مثل إيثار التوافق العائلي وحب الاستقرار واحترام كبار السن وتركيبة الزوج، المكر وكثره النسل.

وتعالج هذه الدراسة مظاهر الحياة الأسرية من واقع النصوص والأثر لتكشف عن أساليب الزواج والطلاق ومدولات نسبيات الأطفال ومئات الأسرة ووضع المرأة في المجتمع.